قصص قصيرة

روبرتو بولانيو

ترجمة: أمـــاني لازار
تحرير: وليد الشايجي

الغاوتشو الذي لا يُطاق

Roberto Bolaño
The Insufferable Gaucho
and other stories

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الغاوتشو الذي لا يطاق

قصص قصيرة..

روبرتو بولانيو

ترجمة: أماني لازار

تحرير: وليد الشايجي

عن الكتاب..

مجموعة قصصية يشترك فيها: روبيرتو بولانيو - خابيير مارياس قصص المجموعة: الغاوتشو الذي لا يطاق / روبرتو بولانيو جِم (JIM) / روبيرتو بولانيو بيناهنَّ نائمات / خابيير مارياس رحلة إسحق / خابيير مارياس حياة وموت مارسيلينو ايتورياجا / خابيير مارياس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغاوتشو([1]) الذي لا يطاق

روبرتو بولانيو([2])

إلى رودريغو فريزان

كان هكتور بيريدا في ظن هؤلاء الذين عرفوه جيدًا يمتاز بخصلتين بارزتين: كان أبًا مهتمًا وحنونًا، ومحاميًا لا غبار عليه بسجل نزيه، في زمان ومكان كانا بالكاد يعينان على مثل هذا السُّلوك. كنتيجة للفضيلة الأولى، اتهمه كلٌ من ابنه وابنته، بيبي وكوكا، اللذان حظيا بسني طفولة ومراهقة سعيدة، فيما بعد، بحمايتهما من حقائق الحياة القاسية، مركزين هجومهما بشكل خاص على معالجته للمسائل العملية. أما عمله كمحام، ليس هناك الكثير ليقال. نجح وكان له أصدقاء أكثر من الأعداء، وهذا لم يكن بالأمر السَّهل، وعندما كان لديه الخيار بين أن يصبح قاضيًا أو عضوًا في حزب سياسي، اختار المحكمة دون تردد، مع أن هذا قد عنى تفويت إمكانيات لكسب مالي أكبر كان ليتاح له في السِّياسة كما هو واضح.

بعد ثلاث سنوات بأيّ حال، مثبطًا من عمله كقاضٍ، هجر الحياة العامة وقضى بعض الوقت، ربما حتى بضع سنوات، في القراءة والسَّفر. بطبيعة الحال، كانت هناك أيضًا السيدة بيريدا، وهي من عائلة هيرشمان، التي كان المحامي يحبها بجنون، كما يقال. هناك صور من ذلك الوقت تثبت ذلك: يظهر بيريدا في واحدة منها في بذلة سوداء يرقص التانغو مع امرأة شقراء، تقريبًا الأشقر البلاتيني، تنظر إلى آلة التصوير وتبتسم، في حين ظلّت عينا المحامي مثبتتين عليها، كعيون المسرنم أو الشَّاة. للأسف، ماتت السيدة بيريدا فجأة، عندما كانت كوكا في الخامسة من عمرها وبيبي في السابعة. لم يتزوج الأرمل الشاب أبدًا ثانية، مع أنه كان هناك العديد من النِّساء في حلقته الاجتماعية عرف بعلاقته الطيبة معهن (ولو أنها لم تكن علاقة حميمة أبدًا) وعلاوة على ذلك كان لدى كلٍّ واحدة منهن الصفات المطلوبة التي تؤهلها لأن تكون السيدة بيريدا الجديدة.

عندما سُئل المحامي من قبل اثنين أو ثلاثة من أصدقائه المقربين عن سبب بقائه عازبًا، كان يجيب بأنه ليس راغبًا في فرض ثقل لا يطاق (على حدِّ تعبيره) من زوجة أب على ذريته. برأي بيريدا، معظم مشاكل الأرجنتين الحالية يمكن أن تعود إلى شخص زوجة الأب. لم يكن لدينا أم أبدًا، كان يقول، إما أنها لم تكن موجودة أبدًا، أو تركتنا على باب دار الأيتام. لكن كان لدينا الكثير من زوجات الأب، من كل الأنواع، بدءًا من زوجة الأب البيرونية العظيمة. ويختتم: من بين كل بلدان أميركا اللاتينية، نحن بالذات لدينا خبرة مع زوجات الأب.

وعلى كل شيء، كانت حياته سعيدة. من الصَّعب ألا تكون كذلك، كان يقول، فالسعادة حتمية في بوينس آيريس التي هي مزيج من باريس وبرلين، مع أنه إذا ما نظرت من كثب فهي أكثر شبهًا بخليط مثالي من ليون وبراغ. كل يوم، ينهض في الوقت نفسه مع أولاده، يتناول فطوره معهم ويوصلهم إلى المدرسة. يمضي بقية الصَّباح في قراءة صحيفتين على الأقل، وبعد وجبة خفيفة في الحادية عشرة (مكونة

بشكل أساسي من لحوم باردة وسجق على خبز فرنسي مدهون بالزبدة وكأسين أو ثلاثة من النبيذ الأرجنتيني أو التشيلي، فيما عدا مناسبات خاصة، عندما كان النَّبيذ فرنسيًا بطبيعة الحال)، كان يأخذ قيلولة حتى السَّاعة الواحدة. كان غداءه الذي يتناوله وحيدًا -في غرفة فارغة ضخمة بينما يقرأ كتابًا تحت أنظار خادمة مسنة ذاهلة، ونظرة بالأبيض والأسود من زوجته الفقيدة، تنظر عبر صور فوتوغرافية في أطر فضية مزخرفة- خفيفًا: حساء والقليل من السمك والبطاطا المهروسة الذي سيترك البعض منه كي يبرد. في الأصيل، يساعد أطفاله في حلِّ واجباتهم المدرسية، أو يجلس بجانب كوكا وهي تأخذ دروس البيانو بصمت، أو إلى جانب بيبي وهو يتلقى دروسه في الفرنسية والإنكليزية من قبل مدرسين يحملان ألقابًا إيطالية، كانا يأتيان إلى المنزل.

أحيانًا، حين تحفظ كوكا عزف مقطوعة كاملة، كانت الخادمة والطاهية تأتيان للاستماع ايضاً، أما هو، فسيسمعهما تتمتمان بكلمات الثَّناء التي خطر له في البداية أنها مبالغ بها بفخر كبير، لكن من بعد تأمُّل، بدت مناسبة تمامًا. بعد تمني ليلة سعيدة لأطفاله وتذكير كادره المنزلي بعدم فتح الباب لأي كان، يذهب إلى مقهاه المفضل، في كورينتيس، حيث يجلس حتى الواحدة كحدٍ أقصى، مستمعًا إلى أصدقائه أو أصدقائهم يناقشون قضايا ظن أنه سيجدها مملَّة للغاية إذا ما علم أي شيء عنها، يعود من بعدها إلى البيت، حيث يكون الجميع نيام.

أخيرًا، كبر الأطفال. أولًا تزوجت كوكا وذهبت لتعيش في ريو دي جانيرو، ومن ثم بدأ بيبي الكتابة وأصبح بالفعل كاتبًا ناجحًا جدًا، وهذا كان مصدر فخر كبير لبيريدا الذي قرأ كل كلمة كتبها ابنه وجميع منشوراته. واصل بيبي العيش في البيت لعدة سنوات (أين كان له أن يجد مكان آخر بمثل هذه الجودة)، من بعدها مثل أخته، طار من العش.

أولًا، حاول المحامي التخلي عن العزلة. ربطته علاقة بأرملة، سافر في رحلة طويلة إلى فرنسا وإيطاليا، قابل فتاة تدعى ريبيكا، وأخيرًا أرضى نفسه بتنظيم مكتبته الفوضوية الضخمة. عندما عاد بيبي من الولايات المتحدة، حيث أمضى سنة معلمًا في جامعة هناك، هرم بيريدا قبل الأوان. كان بيبي قلقًا وحاول ألا يدع والده وحيدًا لوقت طويل. لذا كانا يذهبان أحيانًا إلى السينما أو إلى المسرح، حيث ينام المحامي عادة، وأحيانًا يجره بيبي إلى تجمعات أدبية كانت تعقد في مقهى القلم الأسود، حيث ينعم الكتاب بمجد بعض الجوائز المحلية، مسهبين مطولًا حول مصير الأمة. عندما كانوا يتحدثون عن الأدب، كان بيريدا يشعر بسأم شديد.

في رأيه، كان أفضل كاتبين في الأرجنتين هما بورخيس وبيبي، أي تعقيب إضافي حول الموضوع كان نافلًا. لكن عندما بدأوا يتحدثون عن السِّياسات العالمية والمحلية، توتر جسد المحامي كما لو أنه شحن بتيار كهربائي. ومن حينها تغيرت عاداته اليومية. بدأ بالنهوض باكرًا لينظر في الكتب القديمة في مكتبته، باحثًا عن شيء ما ولو أنه لم يستطع تحديده. قرَّر ترك النبيذ واللحوم الدَّسمة لأنه أدرك أنها كانت تبلد فكره. كانت نظافته الشخصية أيضًا تخضع للتغيير، لم يعد يهتم بهندامه لدى خروجه، وسرعان ما توقَّف عن أخذ حمَّام يومي، وحتى أنه راح إلى المتنزه

لقراءة الصحيفة دون أن يعقد ربطة عنق. بالكاد تعرَّف أصدقاؤه القدامى في هذا البيريدا الجديد على المحامي الذي عهدوه وكان نزيهًا بكل اعتبار. نهض ذات يوم وهو يشعر بتوتر أكبر من المعتاد. تناول طعام الغداء مع قاضٍ وصحفي متقاعدين وكان يضحك طوال تلك الفترة. فيما بعد وبينما هم يشربون الكونياك سأله القاضي عما يجده مضحكًا إلى هذا الحد. أجابه بيريدا، «بوينس آيريس تتداعى". فكَّر الصَّحفي في أن المحامي قد أصيب بالجنون، ونصحه بقضاء بعض الوقت على البحر ذي الهواء المنعش. فكر القاضي الأقل ميلًا إلى التنظير في أن بيريدا قد حاد عن الموضوع.

بعد عدَّة أيام، ولكن بعد عدة أيام، إنهار الاقتصاد الارجنتيني. تجمَّدت الأرصدة المودعة بالدولار الأميركي، هؤلاء الذين لم ينقلوا رؤوس أموالهم (أو مدَّخراتهم) إلى الخارج اكتشفوا فجأة أنه لم يتبقَّ لديهم شيء، أو فقط بعض السَّندات والأوراق المصرفية. كان المشهد بمفرده كافيًا لإصابتهم بقشعريرة، وعودٌ مبهمة مستوحاة من تانغو منسي ومن كلمات النَّشيد الوطني. قلت لك ذلك، قال المحامي لكل شخص راغب في الاستماع. بعدها وقف برفقة طاهيته وخادمته، في طوابير طويلة مثل الكثير من سكان بوينس آيريس، وانخرطوا في محادثات طويلة مع الغرباء الذين تفاجأ من لطافتهم، في الشوارع المزدحمة بالناس المخدوعين بالحكومة، أو البنوك، أو كائنًا من كان.

عندما استقال الرئيس، كان بيريدا هناك بين المحتجين وهم يطرقون على قدورهم ومقاليهم. أحيانًا بدا كما لو أن الكهول استولوا على الشَّارع، من كل الطبقات الاجتماعية، وقد أعجبه ذلك، مع أنه لا يعرف السَّبب؛ بدا الوضع مثل إشارة كانت تتغير أحيانًا، شيء ما كان ينتقل في الظلمة، مع أنه كان أيضًا سعيدًا بالانضمام إلى إضرابات غير مضمونة ومحاصرات سرعان ما انفضَّت إلى مشاجرات. في غضون بضعة أيام تتابع على رئاسة الأرجنتين ثلاثة رؤساء مختلفين. لم يخطر لأي كان أن يعلن ثورة أو ينظم انقلابًا عسكريًا. وحينها قرر بيريدا العودة إلى الريف.

قبل المغادرة، شرح خطته لكل من الخادمة والطاهية.

قال: «بوينس آيريس تنهار، أنا ذاهب إلى المزرعة».

تكلموا لساعات وهم جالسين إلى طاولة المطبخ. كانت الطاهية ترافقه إلى المزرعة عندما كان يذهب إليها، هو الذي لطالما كان يقول إن الريف لم يكن مكانًا مناسبًا لرجل مثله، رجل عائلة محترمة، من أراد أن يكون واثقًا من حصول أطفاله على تعليم جيد. صوره الذهنية عن المزرعة بهتت وتغشَّت، لم يبقِ منها سوى منزل بفجوة في الوسط، شجرة ضخمة رهيبة، واسطبل يومض بالظِّلال التي قد تكون جرذانًا. وعلى ذلك، في تلك الليلة وهو يحتسي الشاي في المطبخ أخبر موظفتيه إنه لا يكاد يملك المال ليدفع لهن (كانت كلها مجمدة في البنك، وبتعبير آخر بحكم المفقودة) والحل الوحيد كان أن يصحبهما إلى الريف، حيث لن يعدموا الطعام على الأقل، أو هذا ما أمله.

استمعت الخادمة والطاهية إليه بشفقة، وعند حد ما نشج المحامي بالبكاء. في محاولة منهما لتعزيته، قالتا له ألا يقلق بشأن المال، كانتا جاهزتين لمواصلة العمل حتى ولو لم يتمكن من الدفع لهما. رفض المحامي بحزم أي إجراء من هذا القبيل. لن أصبح قوَّادًا بعد هذا العمر، قال بابتسامة معتذرة. في الصباح التالي حزم حقيبته واستقل سيارة أجرة إلى المحطة. لوحت المرأتان له عن الرصيف.

منحته رحلة القطار الطويلة الرتيبة وقتًا وفيرًا للتأمل. في البدء كانت العربة ممتلئة. لاحظ وجود موضوعان للمحادثات بشكل أساسي: حالة البلاد من الإفلاس، وكيف أن فريق الأرجنتين كان يتهيأ لكأس العالم في كوريا واليابان. ذكَّرته زحمة المسافرين بالقطارات المسافرة من موسكو في فيلم «دكتور زيفاغو» الذي شاهده فيما مضى، بخلاف أنه في العربات الروسية كما صوِّرت من قبل ذلك المخرج الإنكليزي لم يكن الحديث عن هوكي الجليد أو التزحلق. فحدث نفسه، أي أملٍ لدينا؟ مع أنه كان عليه الإقرار بأنه في الصَّحيفة بدت تشكيلة المنتخب الأرجنتينية المختارة لا تقهر. عندما حلَّ الليل، توقفت المحادثات، وفكر المحامي في طفليه، كان كل من كوكا وبيبي في الخارج. فكر أيضًا بعدد من النِّسوة اللواتي عرفهن من قرب، لكنه لم يخطر بباله أنه كان سيذكرهن بصمت، انبثقن من النسيان، بشرتهن مغطاة بالعرق، تبثثن في روحه الضَّجرة شيء من السَّكينة، مع أنها لم تكن صافية تمامًا، ربما ليست بمعنى المغامرة تمامًا، لكن شيء ما يشبهها.

ومن ثم بدأ القطار يتقدم عبر السُّهول، فحنى المحامي رأسه أمام الزجاج البارد للنافذة وغطَّ في النوم.

عندما استيقظ، كانت العربة نصف فارغة وكان هناك رجل يبدو هنديًا إلى حد ما جالس بجانبه، يقرأ كتاب الرجل الوطواط المصور.

«أين نحن؟» سأل بيريدا.

«في كورنيل جوتييريز»، قال الرجل.

آه هذا صحيح، فكَّر المحامي، أنا ذاهب إلى كابيتان جوردان. ومن ثم نهض، مادًّا ساقيه، وقعد من جديد. في الخارج على الأرض المنبسطة رأى أرنبًا بدا كما لو أنه يسابق القطار. كان هناك خمسة أرانب أخرى تركض خلفه. الأرنب الأول، يركض بمحاذاة النافذة تمامًا بعيون متسعة، كما لو أن السباق مع القطار تطلب جهدًا فائقًا (أو بالأحرى قفزًا ممتازًا) بدا أن الأرانب في المطاردة تركض بشكل ترادفي، كالدَّراجين في سباق فرنسا.

بعدة قفزات كبيرة، أخذ الأرنب الذي في المؤخرة مكان المتسابق الأول الذي تراجع إلى المركز الأخير، في حين أن الأرنب الثالث انتقل إلى المركز الثاني، والرابع انتقل إلى الثالث، وطوال المدة كانت المجموعة تطبق على الأرنب المنفرد الذي يركض بمحاذاة النافذة. الأرانب، دار بخلده أن الأرانب رائعة! على الأراضي المنبسطة، لم يكن هناك شيء آخر يراه: فسحة واسعة لا نهائية من العشب الشحيح،

تحت الغيوم الواطئة الكبيرة، ولا توجد أي علامة على وجود أي بلدة في هذه الأنحاء.

«هل أنت ذاهب إلى كابيتان جوردان؟» سأل بيريدا قارئ الرجل الوطواط الذي بدا أنه يتفحص كل لوحة باهتمام فائق مدققًا بكل تفصيل كما لو أنه كان يزور متحفًا متنقلًا.

«لا»، أجاب، «سأنزل عند الابيديرو».

حاول بيريدا تذكر محطة بذلك الاسم لكنه لم يستطع.

«وماهي؟ هل هي محطة أو مصنع؟»

حدق الرجل الذي يبدو هنديًا به بتركيز وقال: «محطَّة».

بدا لبيريدا أنه متضايق. لم يكن يطرح مثل تلك الأسئلة في العادة، بالنَّظر لرجاحة عقله المألوفة. ورأى أنَّ السُّهول جعلته يستفسر بتلك الطَّريقة من الصَّراحة، والقوَّة، والواقعية.

عندما أراح جبهته على النَّافذة ثانية، رأى أن الأرانب في المطاردة قد التحقت بالأرنب الذي يركض وحيدًا، وكانت تهاجمه بشراسة، تمزق جسده بمخالبها وأسنانها -تلك الأسنان الطويلة القارضة، فكَّر بيريدا برعب مرتعدًا. نظر مرة ثانية ورأى كتلة بلا ملامح من الفراء الأسمر اللون تتدحرج بجانب السكة الحديدية.

كان بريدا، وامرأة وطفلاها، هم الوحيدون الذين ترجلوا من محطة كابيتان جوردان. كان نصف الرصيف من الخشب، والنصف الآخر اسمنتي، ومع أنَّه بذل أقصى جهوده، لم يستطع بيريدا العثور على موظف السِّكة الحديدية في أيّ مكان. بدأت المرأة والطِّفلان بالسير على السِّكة، ومع أنهم كانوا يبتعدون وهيئاتهم تتضاءل بشكلٍ مرئي وواضح، إلا أن اختفاؤهم عن مرمى النظر استغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة بحسابات المحامي. هل الأرض مدورَّة؟ تساءل بيريدا. بالطَّبع هي كذلك، قال لنفسه، وهو يجلس على مقعد خشبي قديم أمام جدار المحطة، مستعدًا لقتل بعض الوقت. تذكر قصة بورخيس «الجنوب»، وعندما فكَّر بالمخزن المشار إليه في الفقرة الأخيرة، اغرورقت عيناه، ومن ثم تذكَّر حكاية من رواية بيبي الأخيرة وتخيل ابنه يكتب على جهاز الحاسوب في غرفة متقشفة في جامعة في الغرب الأوسط. عندما يأتي بيبي ويكتشف أني رحلت إلى المزرعة... فكَّر بحدس متحمس.

شعر بالنُّعاس بسبب الوهج والنَّسيم الدافئ اللذين كانا يلفحان السَّهل، غطَّ في النوم. هزَّته يد موقظة إياه. رجل في مثل سنه، يرتدي بزةً قديمة خاصة بالسِّكك الحديدية، سأله عما يفعله هناك. قال بيريدا إنه مالك مزرعة آلامو نيجرو. وقف الرجل ينظر إليه لبرهة، من ثم قال: «القاضي».

«هذا صحيح»، أجاب بيريدا. «كنت في وقت من الأوقات قاضيًا».

«ألا تتذكرني سيدي القاضي؟»

تفحص بيريدا الرجل: يحتاج إلى بزة جديدة وقصة شعر، في الحال. هزّ بيريدا رأسه.

«أنا سيفيرو انفانتي»، قال الرجل. «كنا نلعب معًا في طفولتنا».

«لكن يا رفيق، هذا من عهود مضت، كيف لي أن أتذكر»، رد بيريدا، وبدا صوته، ناهيك عن الكلمات التي استعملها، غريبًا، كما لو أن هواء كابيتان جوردان أنعش حباله الصوتية أو حنجرته.

«بالطَّبع، أنت محق سيدي القاضي»، قال سيفيرو انفانتي، «لكن لدي رغبة في الاحتفال بأي حال». متنططًا كالكنغر، اختفى موظف المحطة في مكتب التَّذاكر، ثم خرج ومعه قنينة وكأسًا.

«في صحتك»، قال، مناولًا بيريدا الكأس الذي ملأه إلى منتصفه بسائل صافٍ، بدا أنه كحول صرف. رشف بيريدا رشفة كان لها طعم الأرض المحروقة والحجر، وترك الكأس على المقعد. قال إنه أقلع عن الشرب. ومن ثم نهض وسأل عن الطريق المؤدي إلى مزرعته. خرجا من الباب الخلفي.

«ها هي كابيتان جوردان هناك»، قال سيفيرو، «خلف الغدير الجاف تمامًا. آلامو نيجرو من الطريق الآخر، أبعد قليلًا، لكن لا يمكن أن تضيع في وضح النهار».

«انتبه لنفسك»، قال بيريدا، وسلك طريق مزرعته.

كان المنزل الرَّئيس مدمرًا تقريبًا. والطَّقس في تلك الليلة باردًا، حاول بيريدا أن يجمع بعض الأعواد ليشعل نارًا، لكنه لم يتمكَّن من إيجاد أي شيء ليحرقه، وفي آخر الأمر التحف بمعطفه، ملقيًا برأسه على حقيبته، ونام، قائلًا لنفسه إنّ غدًا يوم آخر. نهض مع خيوط الفجر الأولى. يوجد ماء في البئر، مع أن الجردل اختفى وكان الحبل باليًا. فكَّر: عليَّ شراء حبل وجردل. وعلى الفطور تناول ما بقي من علبة الفستق التي اشتراها في القطار. عاين غرف منزل المزرعة العديدة ذوات السَّقوف المنخفضة. ومن ثم توجَّه إلى كابيتان جوردان، وكان متفاجئًا لرؤية الأرانب وليس قطعان الماشية على الطريق. راقبها بقلق.

كانت تثب نحوه أحيانًا، لكنه كان يلوح بذراعيه ليبعدها. على أنه لم يكن أبدًا متحمسًا للأسلحة على وجه الخصوص، لكنه كان ليسر بامتلاك واحد منها في ذلك الحين. فيما عدا ذلك، حسَّن المشي مزاجه: كان الهواء منعشًا، والسَّماء صافية، والطَّقس معتدلًا. كان يلمح من وقت إلى آخر شجرة وحيدة في السَّهل، خطر له أن المشهد شاعري، كما لو أن الشَّجرة ومنظر الريف المهجور قد تم ترتيبه خصيصًا من أجله وكان ينتظر وصوله بفارغ الصبر.

لم يكن أيّ من طرقات كابيتان جوردان ممهدًا، كانت واجهات البيوت مغطاة بطبقة سميكة من الغبار. ولدى دخوله البلدة، رأى رجلًا نائمًا بجانب بعض المزهريات وفيها زهور بلاستيكية. فكَّر: يا إلهي، أي مزبلة!. كانت السَّاحة الأساسية رحيبة، ومبنى البلدية، المبنية من القرميد، منحت مجموعة من الأبنية الرابضة المهجورة مقدارًا ضئيلًا من التحضر. سأل البستاني الذي كان جالسًا في السَّاحة يدخِّن

سيجارة، عن مكان مخزن الخردوات. نظر البستاني نحوه بفضول، ومن ثم رافقه إلى مخزن الخردوات الوحيد في البلدة. باعه المالك الهندي كل ما لديه من حبال في المخزن: أربعون ياردة من القنّب المضفور، تفحَّصها بيريدا مطوَّلًا، كما لو أنه يبحث عن الخيوط الفالتة.

«سجّلها على حسابي»، قال.

نظر الهندي نحوه مربكًا.

«حساب من؟» سأل.

«حساب هيكتور بيريدا»، قال بيريدا وهو يكوِّم ممتلكاته الجديدة في زاوية من زوايا المخزن. من ثم سأل الهندي عن المكان الذي يمكنه أن يجد فيه حصانًا.

«لم يعد يوجد هنا أحصنة»، قال، «ليس سوى الأرانب».

ظنَّ بيريدا إنها مزحة وأجاب بضحكة سريعة، جافة. قال البستاني الذي كان ينظر من العتبة، إنه قد يكون هناك حصان أغبر في مرعى دون دولشي. سأله بيريدا عن الطريق إليها، ومشى البستاني بضعة عمارات معه نحو قطعة أرض مهجورة ملآى بالأنقاض.

كانت المزرعة تدعى مي باريسو، ولم تبدُ مهدَّمة كآلامو نيجرو. كان هناك بضع دجاجات تنقد في الباحة. وباب الحظيرة منزوع من مكانه وثمَّة شخص ما أسنده إلى الحائط المجاور. كان بعض الأولاد -يبدو أنهم هنود- يلعبون بالحبال المخصَّصة للإمساك بالأبقار. خرجت امرأة من المنزل الرئيس ملقية بالتحية. طلب منها بيريدا كأس ماء. وبينما كان يشرب سأل عن حصان للبيع.

«سيتوجب عليك انتظار الرئيس»، قالت المرأة ذلك وعادت إلى المنزل.

جلس بيريدا بجانب الحائط وشغل نفسه بهشِّ الذُّباب الذي كان يئز في كل مكان، كما لو أن الباحة كانت تستعمل من أجل حفظ اللحوم، فكَّر بيريدا، مع أن المحفوظات الوحيدة التي لاقاها سابقًا كانت تلك التي اعتاد شراءها منذ سنوات عديدة من مخزن كان يستوردها من إنكلترا مباشرة. سمع بعد ساعة صوت سيارة جيب ونهض.

كان دون دولشي رجلًا ضئيلًا له وجه زهري اللون، أزرق العينين، يرتدي قميصًا قصير الأكمام، على أنه لدى وصوله كان الطقس آخذًا بالبرودة. خرج من سيارة الجيب أيضًا رجل أقصر قامة بقليل: راعٍ يلبس سروالًا فضفاضًا، ورداءً من الصُّوف، رمى بيريدا بنظرة جانبية وراح يحمل جلود الأرانب نحو الحظيرة. قدَّم بيريدا نفسه. قال إنه مالك مزرعة آلامو نيجرو، وإنه يخطط للقيام بعمل ما في المزرعة ويحتاج لشراء حصان. دعاه دون دولشي إلى العشاء. جلسوا إلى الطاولة، المضيف، والمرأة التي ظهرت سابقًا، والأطفال، والراعي، وبيريدا. كانت المدفأة مشتعلة، ليس لتدفئة الغرفة لكن من أجل شواء اللحم. كان الخبز قاسيًا وغير

مختمر، كما يصنعه اليهود، متذكرًا زوجته اليهودية بلمسة من الحنين. لكن لم يبدُ أن أحدًا في مي بارايسو كان يهوديًا.

سارت الأمور بيسر عندما وصل الأمر إلى شراء الحصان. لم يكن هناك مشكلة في الاختيار، لأنه لم يكن هناك سوى حصان واحد للبيع. عندما قال بيريدا إنه قد يؤجِّل الدفع حتى الشَّهر القادم، لم يعترض دون دولشي، مع أنَّ الراعي الذي لم ينبس بكلمة خلال الوجبة، حدق به بحذر. فيما بعد، أسرجوا الحصان، أرشدوه للطريق، وودعهم.

كم مضى من وقت على آخر مرة امتطيت فيها حصانًا؟ تساءل بيريدا. شعر بالقلق بضع ثوان، خوفًا من تكسر عظامه التي اعتادت على راحة بوينس آيريس وأرائكها، تحت الجهد. كان الليل مظلمًا مثل الفحم أو القار. تعابير حمقاء، قال بيريدا لنفسه. قد تكون الليالي الأوروبية دهماء أو فاحمة، لكن الليالي الجنوب أمريكية ليست كذلك، المظلمة مثل فجوة، حيث ليس هناك شيء للتمسك به، ليس من ملجأ من قوى الطبيعة، فقط فضاء فارغ، تسوطه العاصفة، من فوقهم ومن تحتهم.

«لينهمر المطر ناعمًا عليك!» سمع صراخ دون دولشي.

«إن شاء الله»، أجاب من الظلمة.

غفا مرتين في طريق العودة إلى مزرعته. صحا من غفوته الثانية في واحد من شوارع كابيتان جوردان. رأى متجرًا على ناصية وكان مفتوحًا. سمع أصواتًا، وشخص ما يعزف على الغيتار، يدوزنه لكن لا يستقر على أغنية بعينها ليعزفها أبدًا، مثل بعض الشخصيات التي كان يقرؤها في قصص بورخيس. فكر للحظة في أن قدره، قدره الأميركي الفاشل، سيكون في أن يلقى حتفه مثل دالمان في «الجنوب»، وبدا هذا ظالمًا، من ناحية لأن عليه تسديد ديونه، ومن ناحية أخرى، لأنه لم يكن جاهزًا للموت بعد، مع علمه أن المرء لا يكون جاهزًا للموت مطلقًا. استولى عليه وحي مفاجئ عندما دخل المتجر ممتطيًا الحصان. وجد في الداخل راعيًا مسنًا يدوزن الغيتار، المالك، وثلاثة شبَّان، جالسين إلى طاولة، جفلوا لرؤيتهم دخول الحصان. كان بيريدا مقتنعًا في قرارة نفسه بأن المشهد كان يشبه أمرًا ما في قصة دي بينديتيو.

على ذلك، توجَّه مقتربًا من الحاجز المطلي بالتوتياء. طلب كأسًا من البراندي تناوله بيد واحدة في حين أمسكت اليد الأخرى بتحفظ، بسوط دون أن يراه أحد، طالما أنه لم يشتر بعد لنفسه سكينًا تقليدية ذات غمد. طلب من المالك أن يسجل المشروب على حسابه، وبينما هو في طريقه للخروج، مر بالرعاة الشُّبان، وطلب منهم الابتعاد لأنه سوف يبصق. وهذا كان يعني تأكيدًا لسلطته، لكن قبل أن يتمكن الرعاة من استيعاب ما كان يحدث، كانت كتلة البلغم قد طارت من فمه، وبالكاد كان لديهم الوقت للقفز.

«لينهمر المطر ناعمًا عليكم»، قال، قبل أن يختفي في عتمة كابيتان جوردان.

منذ ذلك الحين، كان بيريدا يذهب إلى البلدة يوميًا على حصانه الذي يدعى خوسيه بيانكو. كثيرًا ما كان يذهب لشراء أدوات يصلح بها بيت المزرعة، لكنه أيضًا كان يمضي وقتًا في الثرثرة مع البستاني، أو مع أمناء المتجر العام ومتجر الخردوات الذين تناقصت موارد رزقهم يومًا بعد آخر، بسبب الأحاديث الطويلة التي كان يجريها مع كلٍّ منهم. انضمَّ رعاة آخرون وحانوتيون لاحقًا إلى هذه المحادثات، وفي أحيان كان بعض الأطفال يأتون لسماع قصص بيريدا. بطبيعة الحال، كان ينهي هذه القصص نهاية مؤثرة، وإن لم تكن مبهجة تمامًا. على سبيل المثال، أخبرهم كيف أنه امتلك مرة حصانًا يشبه خوسيه بيانكو كثيرًا، قتل في مواجهة مع الشرطة.

«لحسن الحظ، كنت قاضيًا»، قال، «وعندما تتنازع الشُّرطة مع قاضٍ، أو قاض سابق، فهي تتراجع عادة. تعمل الشُّرطة بحسب القانون، بينما يحمي القضاة العدالة. هل ترون الفرق يا أولاد؟» يهز الرعاة رؤوسهم عادة، مع أنهم لم يفهموا شيئًا من حديثه.

كان يذهب أحيانًا إلى المحطة، حيث صديقه سيفيرو يستغرق في الذكريات مطولًا، عن لهوهما في الطفولة. على أن بيريدا كان مقتنعًا في سره أنه لا يمكن أن يكون بتلك الحماقة كما يظهر في تلك القصص، كان يترك سيفيرو يتحدث إلى أن يتعب أو ينام، ومن ثم يخرج إلى الرصيف لينتظر القطار والرسالة التي كان المفترض أن تصل.

أخيرًا، وصلت الرسالة. تشرح طاهيته فيها عن قسوة الحياة في بوينس آيريس، لكن ليس عليه أن يقلق، لأنها هي والخادمة كانتا تذهبان إلى المنزل كل يومين، وعن أنه على أتم ما يرام، وبالنسبة إلى إرسال المال إليه، كانتا تتطلعان إلى ذلك، أكَّدت له، كانت المشكلة أنهما لا تزالان تبحثان عن الطريقة لتتأكدا من أنه لن يسرق من قبل بعض البلطجية على الطريق.

في المساء، في طريق عودته إلى آلامو نيجرو مُسرعًا، يرى المحامي أحيانًا قرية مدمرة من بعيد لم تكن تبدو هناك من قبل. كان يتصاعد عمود نحيل من الدخان من القرية أحيانًا ويتشتت في السَّماء الواسعة فوق السُّهول. بعض الأحيان كان يصادف العربة التي كان السيد دولشي وراعيه يتجولان فيها. كانا يتوقفان للتحدث والتدخين لفترة، يجلس السَّيد دولشي وراعيه في سيارتهما الجيب، والمحامي لا يزال ممتطيًا خوسيه بيانكو. كان السَّيد دولشي يلاحق الأرانب. سأله بيريدا مرَّة عن طريقة صيده لها، وطلب السَّيد دولشي من راعيه أن يُري المحامي واحدًا من الفخاخ التي كان لها شكل مشترك بين القفص ومصيدة الجرذان. لم يرَ بيريدا أبدًا أرنبًا واحدًا في الجيب، فقط الجلود، لأنَّ الراعي كان يسلخها بالقرب من المصائد. بعد تلك المحادثات، يشعر بيريدا دائمًا بأن السيد دولشي كان بطريقة ما يقلل من أهمية الأمة. سأل نفسه: «صيد الأرانب! أي نوع من العمل هو بالنسبة إلى راعٍ». ومن ثم يربِّت على حصانه تربيتةً حنونة ويقول: هيَّا يا رفيقي، يا خوسيه بيانكو، لنمض، ويتوجه عائدًا إلى المزرعة.

جاءت الطاهية ذات يوم. كان عليها إيصال النقود إليه. امتطت خلفه خوسيه بيانكو نصف المسافة من المحطة إلى المزرعة، ومن ثم مشيا بقية الطريق، بصمت، متأملين السَّهل. في هذا الوقت، كان منزل المزرعة مريحًا أكثر مما كان عليه عند وصول بيريدا، تناولا يخنة الأرانب، من ثم على نور القنديل، سلمت الطاهية المال الذي أتت به، مبينة له أنه ثمن بعض الأشياء التي أجبرت على بيعها من المنزل بسعر أرخص من ثمنها الحقيقي بقليل. لم يكلِّف بيريدا نفسه عناء عده. عند استيقاظه في صباح اليوم التالي، رأى أن الطاهية قد عملت طوال الليل، ونظفت بعض الغرف. لامها بلطف، قالت «يا سيد هيكتور، المكان هنا كالزريبة».

استقلت القطار بعد يومين على مناشدات المحامي، عائدة إلى بيونيس آيريس. أشعر بأنني شخص آخر حينما أكون بعيدة عن بوينس آيريس، شرحت له وهما ينتظران على رصيف المحطة وحيدين. وليس في مقدوري أن أصبح شخصًا آخر بعد هذا العمر. فكَّر بيريدا، النساء جميعهن سواء. كل شيء يتغير، شرحت له الطاهية. كانت المدينة تعج بالشحاذين، وكان المحترمون من الناس يُنظمون مطابخ تقدم الطعام لفقراء الحي ليحصلوا على ما يسدون به رمقهم. كان هناك على الأقل عشرة أنواع مختلفة من العملات المتداولة، ناهيك عن العملة الرسمية، لم يكن أحد يشعر بالملل، كان الناس يائسين، لكنهم لا يشعرون بالملل، وهي تتحدث، راقب بيريدا الأرانب التي ظهرت على الجانب الآخر من السِّكة، نظرت الأرانب نحوهما، ومن ثم قفزت بعيدًا عبر السَّهل، أحيانًا يبدو الأمر كما لو أنَّ هذه البلدة ممتلئة بالقمل أو بالبراغيث، فكَّر المحامي. سدَّد ديونه بالمال الذي جلبته الطاهية، واستأجر زوجًا من الرعاة لإصلاح سقف منزل المزرعة الذي كان يتقوض، كانت المشكلة مع أنه لا يعرف إلا القليل عن النِّجارة، لكن هذا القليل كان أكثر مما يعرفه الراعيَيْن.

يُدعى أحدهما خوسيه ويناهز عمره سبعين عامًا، لم يكن يملك حصانًا، والآخر يدعى كامبودونيكو، أصغر سنًا على الأرجح، وقد يكون أكبر سناً، كان كلٌّ منهما يرتدي لباسًا تقليديًا فضفاضًا، لكن غطاء الرأس كان عبارة عن قبعتين صنعاها بنفسيهما من جلود الأرانب، وليس لديهما عائلة، وبالتالي بعد مدة جاءا للعيش في آلامو نيجرو. في الليل، على ضوء النَّار في الهواء الطلق، أمضى بيريدا الوقت يروي المغامرات التي لم تجرِ أحداثها إلا في خياله. تحدث إليهما عن الأرجنتين، وبوينس آيريس، وعن السُّهولَ، وسألهما عن أي من الثلاثة سوف يختاران. قال إن الأرجنتين رواية، فهي على أحسن تقدير، مجرد وهم. بوينس آيريس الممتلئة بالتشدق والكذب، مكان كالجحيم، لا شيء يميزها إلا نساؤها والكتّاب، بعضهم فقط. لكن السُّهول، السُّهول أبدية، مقبرة بلا حدود، هكذا هي. هل يمكنكم تخيُّل ذلك، يا أولاد، مقبرة بلا حدود؟ ابتسم الراعيان واعترفا أنه في الحقيقة من الصعب جدًا تخيل شيء مثل ذلك، طالما أن المقابر من أجل البشر، وعلى أن عدد البشر كبير، لكن له حدًا. آه، لكن المقبرة التي أتحدث عنها، قال بيريدا، هي نسخة مطابقة للأبدية.

ذهب بما بقي من المال، إلى كورونل جيتيرريز واشترى فرسًا ومهرًا. لم تكن الفرس حرونة وتم امتطاؤها، لكن المُهر لم يكن ذا فائدة لأي شيء، ووجبت معاملته

بحذر بالغ. أحيانًا، في المساء، عندما كان يشعر بالتعب من العمل أو من التبطل، كان يذهب إلى كابيتان جوردان مع راعييْه. ممتطيًا خوسيه بيانكو، وهما يمتطيان الفرس. عند دخوله المتجر، يحل صمت مهيب على الزبائن. كان البعض يلعب الورق، والآخرون يلعبون الداما. عندما يحضر العمدة، وهو ميَّال إلى الاكتئاب، يكون هناك دائمًا أربعة متطوعين شجعان للعب المونوبولي التي تستمر حتى الفجر. بدت هذه العادة في لعب الألعاب (ناهيك عن المونوبولي) سيئة وشائنة بالنسبة إلى بيريدا. المتجر هو المكان الذي يتحدث فيه الناس أو يستمعون بصمت إلى محادثات الآخرين، فكّر، المتجر مثل صفٍّ فارغ، المتجر كنيسة مُدخِّنة.

في ليالٍ، لاسيما عندما كان الرعاة يحضرون من خارج المنطقة، أو عندما يحضر بائع جوَّال ضال، كان بيريدا يشعر برغبة شديدة في القتال. لا شيء خطر، مجرد مشاجرة، لكن بسكاكين حقيقية، ليس بعصي البِلياردو، مثل التي يستعملها الأولاد. وفي ليالٍ أخرى، ينام بين راعييه ويحلم بأن زوجته كانت تقود طفليهما بيدها وتؤنبه على الطريقة التي انتهى بها إلى الوحشيَّة. وماذا عن بقية البلاد؟ أجاب المحامي. لكن هذا ليس عذرًا، يا رفيق، أجابت السيدة بيريدا. عندها يوافق المحامي، والدموع تنهمر من عينيه.

عمومًا، على أي حال، كانت أحلامه مهادنة، وعندما يستيقظ في الصباح، يكون في حالة نفسية جيدة ومتحمسًا للبدء بالعمل، مع أنه، ولنكن صادقين، لم ينجز الكثير في آلامو نيجرو. كان إصلاح سطح منزل المزرعة كارثة، رغبة في البدء بحديقة المطبخ، اشترى المحامي وكامبودونيكو بذارًا من كورنويل جيتيريز، لكن بدا أن الأرض لن تتقبل أي بذار غريبة. لمدة من الزمن، حاول المحامي جعل المهر الذي سُمي «حصاني الفحل»، يعتلي الفرس، فمن الأفضل أن تلد الفرس مهرة. فقد تخيل أنه بتلك الطريقة يمكن أن يبني قريبًا متجراً للتوليد يمكن أن يوفر المال، لكن لم يبدُ أن المهر مهتم باعتلاء الفرس، وعلى أنه بحث على مدى أميال، فلم يجد بيريدا ذكرًا، باع الراعيان حصانيهما للمسلخ، والآن يتجولان مشيًا على الأقدام، أو على الدَّراجات، أو يسافران متطفلين على طُرق السُّهول اللانهائية غير المعبدة.

لقد انهرنا، نحن في الحضيض، يقول بيريدا لجمهوره، لكن لا يزال بإمكاننا أن نجمع شتات أنفسنا ونمضي إلى موتنا كالرجال. كان عليه أيضًا أن يضع مصائد الأرانب ليبقى على قيد الحياة. في المساءات، وعندما كان يترك المنزل مع رجاله، غالبًا ما كان يقوم خوسيه وكامبودونيكو بتفريغ الفخاخ، جنبًا إلى جنب مع عامل جديد جيد يُلقب بالرجل العجوز، في حين يذهب وحيدًا إلى القرية المدمرة. وجد هناك بعض الشبان أصغر سنًا من رعاته، لكن غير راغبين في المحادثة وشديدي التوتر فلم يكونوا يستحقون دعوته إلى وجبة. بين الحين والآخر، كان يذهب إلى السِّكة ويمضي وقتًا طويلًا هناك ينتظر مرور القطار، ممتطيًا خوسيه بيانكو، وكلاهما يمضغان العشب. في كثير من الأحيان، لم يكن يمر القطار، كما لو أن هذا الجزء من الأرجنتين قد محي من الذاكرة، بل ومحي من الخريطة أيضاً.

ذات أصيل، بينما كان بيريدا يحاول جعل المهر يعتلي الفرس، رأى سيارة تنطلق على السَّهل، متَّجهة نحو آلامو نيجرو مباشرة. توقفت السَّيارة في السَّاحة، وخرج

منها أربعة رجال. في البدء لم يتعرف على ابنه. ولم يدرك ابنه بيبي أن الرجل المسن الملتحي الذي يرتدي سروالًا فضفاضًا، ذا الشعر الطويل المتشابك، والصدر الأجرد المسفوع بالشمس كان أباه. ابنُ روحي، قال بيريدا، معانقًا إياه، دم دمي، يا سبب أيامي، وكان ليستمر في هذا لولا أن بيبي أوقفه ليُعرفه بأصدقائه، كاتبان من بوينس آيريس والناشر ايبارولا الذي يحب الكتب والطبيعة، وهو من قام بتمويل الرحلة. أشعل المحامي على شرف زوار ابنه نارًا كبيرة في الباحة تلك الليلة، وأرسل في طلب أشهر الرعاة من العازفين على الغيتار في كابيتان جوردان، منذرًا إياه مقدَمًا بأن عليه أن ألا يفعل شيئاً سوى العزف، ألا يعزف أي أغنية على وجه التحديد، تبعًا للطريقة الريفية.

أرسل كامبودونيكو وخوسيه لإحضار عشر ليترات من النبيذ وليتر من البراندي، جاءا بها من كابيتان جوردان في عربة العمدة. كان هنالك عدد جيد من الأرانب في الطريق، أرنب مشوي لكل شخص من الحضور مع أن الحماس للحم الأرانب لم يكن باديًا على الزوار. في تلك الليلة، كان هناك أكثر من ثلاثين شخصًا مجتمعين حول النار إلى جانب رعاة بيريدا والضيوف من بوينس آيريس.

بحلول السَّاعة الثالثة صباحًا، توجَّه الكبار إلى كابيتان جوردان، وبقي بعض الشُّبان فقط في المزرعة، يتساءلون عما سوف يفعلونه، بعد نفاد الطعام والشراب، وخلد الرجال من المدينة للنوم منذ حين. في صباح اليوم التالي حاول بيبي أن يحثَّ والده على العودة إلى بوينس آيريس معه. قال إنَّ الأمور تستقر تدريجًا. شخصيًا، كان راضيًا عن حياته. أعطى والده كتابًا، واحد من هدايا عدة جلبها معه، وقال له إنه قد نشر في إسبانيا. قال: أنا الآن كاتب معروف في أمريكا اللاتينية كلها. لكن المحامي لم تكن لديه فكرة عما كان يقوله ابنه. سأل إذا ما كان قد تزوج وعندما نفى بيبي، اقترح عليه أن يجد امرأة هندية ويأتي للعيش في آلامو نيجرو.

امرأة هندية، كرر بيبي، بنبرة صوت ظنها المحامي حزينة.

كان مسدس بيريتا 92 مع مشبكين وصندوق ذخيرة من بين الهدايا التي جلبها الابن معه. نظر المحامي إلى المسدس متعجبًا.

«هل تظن بصدق أني سوف أحتاج إليه؟» سأل.

«ما أدراك»، قال بيبي. «أنت لوحدك هنا في الحقيقة».

أسرجا الفرس من أجل ايبارولا الذي رغب في إلقاء نظرة على الريف، وامتطى بيريدا خوسيه بيانكو، أمضى الفترة الصباحية يجول معه في الأرجاء. على مدى ساعتين، عبَّر الناشر عن إعجابه بالحياة الخلابة النقية التي يحياها سكان كابيتان جوردان، على حد قوله. عندما وقع نظره على أول المنازل المدمرة، سارع بالعدو، لكن كان أكثر بعدًا مما ظنه، وقبل أن يصل إليه، قفز أرنب وعضه في رقبته. تلاشت صرخة الناشر من فورها في الفضاء المكشوف الفسيح.

كل ما استطاع بيريدا رؤيته من مكانه كانت هيئة داكنة تنبثق من الأرض، ترسم قوسًا باتجاه رأس الناشر، ومن ثم اختفت. باسكي أحمق، فكر. نهز خوسيه بيانكو،

وهو يقترب رأى ايبارولا ممسكًا بعنقه بإحدى يديه ومغطيًا وجهه بالأخرى. دون أن ينبس بكلمة. أزاح بيريدا يد ايبارولا عن عنقه. كان هناك خدش نازف تحت أذنه. سأله بيريدا إذا ما كان يحمل معه منديلًا. أجاب الناشر مؤكدًا، وحينها فقط أدرك بيريدا بأنه كان يبكي. ضع المنديل على الجرح، قال. ومن ثم أخذ لجام الفرس، وشقا طريقهما نحو المنزل المدمر. لم يكن هناك أحد سواهما، لم يترجلا. وهما عائدان إلى المزرعة، كان المنديل الذي يضعه ايبارولا على الجرح يحمر لونه تدريجًا. لم يقولا شيئًا. عندما عادا، طلب بيريدا من راعييْه أن يعريا الناشر حتى خصره، رفعاه على الطاولة في الباحة. غسل بيريدا الجرح، وعمد إلى كيِّه بسكين محمّاة أحمرّ نصلها. ومن ثم غطاه بمنديل آخر، ووضع في المكان ضمادة بديلة. نقع واحدًا من قمصانه القديمة، في البراندي، القدر القليل المتبقي منه، كإجراء شعائري أكثر منه صحي، قد لا ينفع، ولكنه لن يضر.

عندما عاد بيبي والكاتبان من النُّزهة حول كابيتان جوردان، وجدا ايبارولا فاقدًا وعيه على الطاولة، وبيريدا جالس بالقرب منه في كرسي يراقبه باهتمام، كطالب طب. وقف الرعاة الثلاثة خلف بيريدا، منشغلين ايضاً لمرأى الرجل الجريح.

كانت الشَّمس تضرب الباحة دونما هوادة.

«يا ابن العاهرة!» صرخ واحد من أصدقاء بيبي. «والدك قتل ناشرنا».

ولكن الناشر لم يكن ميتًا، وتعافى كليًا، إلا من النُّدبة التي سوف يظهرها لاحقًا بفخر شارحًا أنها أثر للدغة أفعى وثَّابة.

منذ ذلك الحين، ازداد عدد الزوار القادمين من المدينة. كان بيبي يأتي بمفرده أحيانًا، بلباس الفروسية ودفاتره التي كان يكتب فيها قصصًا سوداوية غامضة، بحبكات ترتبط بالجريمة. وأحيانًا كان يأتي برفقة شخصيات بارزة من بوينس آيريس، من الكتَّاب غالبًا، لكن رسامين في أحايين، لإرضاء بيريدا، إذ بدا أنهم، لسبب من الأسباب، يعرفون أكثر عن النجارة والبناء بالآجر مما يعرفه مجموعة الرعاة الذين ينتشرون في الآمو نيجرو طوال اليوم كرائحة كريهة.

في إحدى المرات، جاء بيبي برفقة طبيبة نفسية. شقراء ولها عينان زرقاوان فولاذيتان وعظمتا خدين عاليتان، مثل ممثلة كومبارس من أسطورة «الخاتم»([3])، كانت مشكلتها الوحيدة هي أنها ثرثارة، فكَّر بيريدا. دعاها في أحد الصَّباحات للذهاب في جولة. وافقت الطبيبة، أسرج الفرس، واعتلى خوسيه بيانكو، وتوجها غربًا. وبينما هما كذلك، أخبرته الطبيبة عن عملها في بوينس آيريس في مشفى الأمراض العقلية. قالت له (وكانت الأرانب في بعض الأحيان ترافقهما) أن الناس أصبحت تفقد توازنها النفسي أكثر فأكثر. أثبتت الدراسات ذلك، مما دفع بالطبيبة للظن بأن عدم الاستقرار العقلي لم يكن مرضًا بقدر ما هو طور من أطوار الحالة السويَّة، تمامًا تحت سطح الحالة السوية كما كانٍ التصور الشائع. كل هذا بدا كاللغة الصينية لبيريدا، لكنه أمسك عن قول ذلك رهبةً من جمال ضيفة ابنه. عند منتصف النهار، توقفا لتناول وجبة غداء مكونة من لحم الأرنب المقدد والنبيذ. النبيذ واللحم، اللحم الداكن الذي كان يلتمع كالمرمرٍ عندما يمسه الضوء، وبدا أنه يغلي بالبروتين

حرفيًا، أظهر ذلك نزعة الطبيبة الشَعرية، كما لحظ بيريدا من طرف عينه، ودفعها لإرخاء شَعرها.

في الأصيل حوالي السَّاعة الخامسة، اكتشفا صدفة بيت المزرعة في الأفق. مستثارين، همزا ركائبهما في ذلك الاتجاه، لكن عند السَّادسة لم يكونا قد وصلا بعد، مما دعا بالطبيبة أن تلحظ كيف تكون المسافة مخادعة. عندما وصلا أخيرًا، خرج خمسة أو ستة أطفال سيئو التغذية للترحيب بهما، جنبًا إلى جنب امرأة ترتدي تنورة عريضة جدًا كثيرة الانتفاخ، كما لو أن حيوانًا ما كان تحتها يلتف حول ساقيها. أبقى الأطفال عيونهم مثبتة على الطبيبة التي كان سلوكها أموميًا، ولو أن هذا لم يدم طويلًا، إذ أنها سرعان ما لاحظت كما شرحت لاحقًا لبيريدا، حقدًا دفينًا في نظرتهم، خطة مؤذية تم سبكها، لذا فقد شعرت بلغة صامتة، صارخة، وناقمة.

اوشك بيريدا على استنتاج أن الطبيبة لم تكن بكامل قواها العقلية، اذ قبلت دعوة المرأة ذات التنورة إلى العشاء، وأثناء الوجبة التي تناولوها في غرفة ممتلئة بصور قديمة، علم أن أصحاب المزرعة قد ذهبوا إلى المدينة منذ زمن طويل (لم تعرف المرأة أي مدينة)، والعمال قد توقفوا عن تلقي مرتباتهم الشهرية، لذا رحلوا تدريجًا أيضًا. أخبرتهم المرأة أيضًا عن نهر وفيضان، مع أن بيريدا لم يكن لديه فكرة عن مكانِ النهر، وما من أحد في كابتان جوردان قد أشار إلى أي فيضان. كما هو متوقع، فقد تناولوا لحم الأرانب الذي قامت مضيفتهم بتحضيره بيد خبيرة. وبينما هما يحضِّران نفسيهما للرحيل، أشار بيريدا إلى طريق الآمو نيجرو، مزرعته، في حال ضجروا من العيش هنا. أنا لا أدفع الكثير، لكن على الأقل يوجد هناك رفقة، قالها بجدية كما لو أنه يشرح أن الموت يأتي بعد الحياة، ومن ثم جمع الأطفال حوله وعمد إلى تقديم النصح. وعندما انتهى من الكلام، رأى الطبيبة والمرأة ذات التنورة نائمتين على كرسييهما.

كان النَّهار يوشك على نهايته عندما غادر بيريدا والطبيبة. تلألأ نور البدر على السَّهل، ومن حين إلى آخر كانا يريان أرنبًا يقفز، لكن بيريدا لم يلقِ له أي انتباه، ومن بعد وقت طويل من الصَّمت بدأ برفق بغناء أغنية فرنسية كانت تحبها زوجته.

كانت الأغنية عن رصيف ممتد في البحر والضَّباب، وعن عشَّاق غير مخلصين، ولكنه رآى أن كل العشاق غير مخلصين في نهاية المطاف، وأماكن بقيت مخلصة كليًا.

أحيانًا، بينما كان يسير أو يمتطي خوسيه بيانكو حول التُّخوم المبهمة لمزرعته، فكر بيريدا في أن ما من شيء سيبقى على حاله ما لم يعد القطيع. صرخ: أيتها البقرات، أين أنتن؟.

في الشِّتاء، توجَّهت المرأة ذات التنورة إلى آلامو نيجرو مع الأطفال خلفها. عرفها بعض الناس في كابيتان جوردان وكانوا مسرورين لرؤيتها مجددًا. لم تكن المرأة كثيرة الكلام، لكنها بالتأكيد عملت بجهد أكبر من الرعاة السِّتة الذين كان بيريدا يدفع لهم المرتبات، ولو بالغنا، إذ أنه كثيرًا ما كانت تمر شهور دون أن يدفع لهم. وبالفعل كان لبعض الرعاة ما يسمَّى مفهوم مميز عن الزمن. يمكنهم التكيُّف مع شهر من

أربعين يومًا دون أن يصابوا بصداع بالغ الشدة. أو سنة من أربعمائة وأربعين يومًا. ما من واحد منهم في الحقيقة ومن ضمنهم بيريدا رغب في التفكير بالزمن. تحدَّث بعض الرعاة، بالقرب من المصطلى، عن العلاج بالصَّدمة الكهربائية، في حين تحدث الآخرون مثل معلق رياضي محترف، لكنهم كانوا يعلقون على مباراة اقيمت منذ زمن بعيد عندما كانوا في العشرين أو الثلاثين من عمرهم، وينتمون لعصابة من الأوغاد، فكر بيريدا بحنان، بنوع ذكوري من الحنان بالطبع.

في إحدى الليالي، سألهم عن آرائهم السِّياسية. كان الرعاة في البداية يمتنعون عن الخوض في السياسة، لكن عندما تمكن أخيرًا من فك عقدة لسانهم، ظهر أنهم كانوا يشعرون بالحنين إلى الجنرال بيرون.

قال بيريدا، هذا فراق بيني وبينكم، وسحب سكينه. فكر لثوانٍ قليلة، في أن الرعاة سيفعلون الأمر نفسه وسيتحدد مصيره في تلك الليلة، لكن الرجال المسنون ارتدوا خائفين وسألوا عما يفعله، بحق الله. ماذا فعلوا؟ ماذا جرى له؟ ألقت النار المومضة بخطوط تشبه خطوط النَّمر من الضوء على وجوههم، لكن وبينما هو ممسك بسكينه، يرتجف، شعر بيريدا بأن عار الأرجنتين أو عار أمريكا اللاتينية جعلهم يتحولون إلى قطط أليفة. لهذا السبب حلت الأرانب محل القطيع، فكر بذلك وهو ذاهب إلى غرفته.

صرخ، كنت لأذبحنكم جميعاً لو لم تكونوا مثاراً للشفقة!

في صباح اليوم التالي، كان يخشى من عودة الرعاة إلى كابيتان جوردان، لكنهم كانوا لا يزالون هناك، يعملون في الباحة أو يشربون المتة بالقرب من النَّار، كما لو أن شيئًا لم يكن. بعد بضعة أيام، وصلت المرأة ذات التنورة من الغرب وبدأت آلامو نيجرو تشهد تغييرًا نحو الأفضل، بدءًا من الطعام، لأن المرأة كانت تعرف عشر طرق مختلفة لطهي الأرانب، ومكان وجود الأعشاب، وكيف تعتني بحديقة المطبخ لزراعة بعض الخضار الطازجة.

في ليلة من الليالي مشت المرأة على امتداد الشرفة وراحت إلى غرفة بيريدا. لم تكن ترتدي سوى ثوب داخلي، أفسح المحامي لها مكانًا في السَّرير، وأمضى بقية الليل ينظر إلى السُّرادق، وهو يحس بالجسد الدافئ وغير المألوف عند أضلاعه. غفا عند طلوع الفجر، وعندما نهض كانت المرأة قد رحلت. قال بيبي، لقد تضاجعتما، عندما أطلعه والده على ما جرى. أشار المحامي أن ذلك صحيح في ظاهره فقط. في هذه المرحلة، بمال استدانه من هنا وهناك، استطاع توسيع الاسطبلات واقتناء أربع بقرات. عندما كان يشعر بالملل في وقت الأصيل، كان يمتطي خوسيه بيانكو ويأخذ البقرات في نزهة. الأرانب التي لم تر بقرة من قبل، حدقت بذهول.

بدا أن بيريدا والبقرات كانوا يتوجهون إلى نهاية العالم، لكنهم كانوا ذاهبين في نزهة وحسب.

تحدث إلى الرعاة المجتمعين في متجر عام في إحدى الأمسيات، قال، أظن أننا بدأنا نفقد ذاكرتنا. أخيراً آن أوان ذلك. نظر الرعاة إليه كما لو أنهم يدركون أهميَّة كلماته

حتى أفضل مما يفعل هو. وبعد وقت قصير تلقى رسالة من بيبي يستدعيه فيها إلى بوينس آيريس لتوقيع بعض الأوراق، ليصبح بيع منزله ممكنًا. ماذا عليَّ أن أفعل، تساءل بيريدا، هل أستقل القطار أو أذهب راكبًا؟ في تلك الليلة بالكاد تمكن من النوم. تخيل أناساً يزدحمون على الأرصفة وهو يشق طريقه بينهم معتلياً صهوة خوسيه بيانكو. دخوله إلى بوينس آيريس، كما تخيله كان له جو دخول المسيح إلى أورشليم أو بروكسل كما صوَّرها انسور. كلنا سندخل إلى أورشليم عاجلًا أم آجلًا، فكر وهو يتقلب ويتخبط. كل فرد منا. والبعض لا يظهر ثانية. لكن الغالبية يفعلون. ومن ثم نحتجز ونصلب. وبخاصة الرعاة المساكين.

تخيل أيضًا شارعًا وسط المدينة، شارع بوينس آيريس الرئيس، مع كل ما للعاصمة من سحر، كان يركب على امتداده على صهوة جواده الموثوق خوسيه بيانكو، في حين تبدأ بالانهمار من النوافذ في الأعلى، زهور بيضاء. من كان يرمي الزهور؟ لم يستطع أن يعرف، اذ كانت الشوارع ونوافذ الأبنية خالية. لا بد أنهم الموتى، افترض بيريدا ذلك بنعاس، موتى أورشليم، وموتى بوينس آيريس.

في الصباح التالي، تكلم مع الرعاة وأخبرهم بأنه سيرحل بعيدًا لفترة. لم يقل واحدهم شيئًا، مع أنه في تلك الليلة على العشاء، سألت المرأة ذات التَّنورة عما إذا كان ذاهبًا إلى بوينس آيريس. هز بيريدا رأسه. إذن اعتن بنفسك وعسى أن يهطل المطر ناعمًا عليك، قالت المرأة.

بعد يومين استقل القطار وعاد على نفس الطَّريق التي أتى منها، منذ أكثر من ثلاث سنوات. عندما وصل إلى محطة كونستيتوكيون، حدق به البعض كما لو أنه كان يرتدي لباسًا تتكريًا، لكن أغلبهم لم يكن مهتمًا برجل عجوز يرتدي ثيابًا قد تكون لراعٍ أو لصياد أرانب. استفسر سائق سيارة الأجرة الذي أقله إلى منزله عن مكان مقدمه، وعندما تلكأ بيريدا، الضَّائع في أفكاره، عن الإجابة، سأل إذا ما كان يتحدث الإسبانية. في طريقه للإجابة، أخرج بيريدا سكينه وعمد إلى قصّ أظافره التي كانت طويلة كأظافر قطة برية.

لم يفتح أحد الباب. كانت المفاتيح تحت الحصيرة، فدخل. بدا المنزل نظيفًا، ربما شديد النظافة وله رائحة النفتلين. شعر بالإنهاك. مشى بيريدا مجهدًا إلى غرفة نومه ورمى بنفسه على السَّرير، دون أن يخلع حذاءه. عندما استيقظ كانت الظلمة قد حلت. ذهب إلى غرفة المعيشة دون أن ينير أي مصباح، واتصل بطاهيته، تحدث إلى زوجها أولًا الذي رغب في معرفة المتصل ولم يبدُ مقتنعًا عندما عرف عن نفسه، ومن ثم جاءت الطاهية، قال: أنا في بوينس آيريس، استيلا. لم تبدُ عليها علائم المفاجأة، أشياء جديدة كانت تحصل كل يوم هنا، أجابت بذلك عندما سألها عما إذا كانت سعيدة لمعرفتها بعودته، ومن ثم حاول أن يتصل بخادمته، لكن صوت أنثويًا مجهولًا أعلمه بأن الرقم الذي يتصل به لم يعد في الخدمة. شعر بتثبط همته، وربما بالجوع، حاول تذكر وجوه موظفتيه لكن الصور التي تمكَّن من استدعائها كانت مبهمة، ظلال تتحرك في الممر، شغب غسيل نظيف، أصوات خافتة وهامسة.

أمر مدهش أن أتمكن من تذكر أرقام هواتفهما، فكر بيريدا وهو يجلس في عتمة غرفة المعيشة في منزله. وبعد وقت قصير خرج متجولًا دونما وجهة محددة، أو خُيل له ذلك، انتهى إلى مقهى حيث اعتاد بيبي لقاء أصدقائه الفنانين والأدباء. نظر من الشَّارع نحو الدَّاخل الفسيح النَّشط، والمضاء جيدًا، بيبي ورجل مسن (رجل مسن مثلي! فكر بيريدا) كانا يتصدَّران واحدة من أكثر الطاولات حيوية. وعلى طاولة أخرى، بالقرب من النافذة التي كان بيريدا يتلصص منها، رأى مجموعة من الكتَّاب الذين بدوا كما لو أنهم يعملون في الإعلانات، أحدهم الذي كان له مظهر مراهق، مع أن عمره كان يزيد عن الخمسين عامًا وربما حتى عن الستين، ظل يستنشق بودرة بيضاء ويتحدث مطولًا عن الأدب العالمي. فجأة، عيون المراهق المزيف التقت بعيني بيريدا، للحظة تشابكت نظراتهما، كما لو أن حضور الآخر، بالنسبة إلى كليهما، كان شرخًا في الواقع المحيط، بإصرار ورشاقة مفاجئة، وثب الكاتب ذو الروح المراهقة على قدميه، وركض نحو الشارع، قبل أن يعرف بيريدا ما الذي يجري، كان الكاتب عنده.

إلام تحدق؟ تساءل منظفًا آثار البودرة البيضاء على أنفه. نظر بيريدا إليه جيئة وذهابًا، كان الكاتب أطول وأنحف وربما أقوى منه. ما الذي تحدق إليه أيها العجوز الفظ؟ كانت عصابة المراهق الزائفة تراقب، متابعة المشهد كما لو أن شيئًا مشابهًا يحصل كل ليلة.

أدرك بيريدا أنه قبض على سكينه، ومن ثم أطلق لنفسه العنان. تقدم خطوة للأمام، وبدون أن يلحظ أحد بأنه كان مسلحًا، غرز رأس النصل، في فخذ عدوه ولو أنه لم ينغرز عميقًا. تذكر لاحقاً نظرة المفاجأة على وجه الرجل التي امتزج فيها الرعب مع شيء من التأنيب، وكلمات الكاتب وهو يلتمس تفسيراً (هيه ماذا فعلت يا أحمق؟)، كما لو أنه يمكن أن يوجد تفسير للحمى والغثيان.

أظن بأنك في حاجة إلى منديل، علَّق بيريدا بصوت واضح قوي، مشيرًا إلى منفرج رجليه الملطخ بالدم. أماه، قال مدمن المخدرات وهو ينظر للأسفل، عندما رفع نظره ثانية، كان محاطًا بأصدقائه وزملائه، لكن بيريدا كان قد رحل.

ماذا عليَّ أن أفعل، تساءل المحامي وهو يطوف في مدينته المحبوبة، وجدها غريبة ومألوفة، رائعة ومثيرة للشفقة. هل عليَّ أن أبقى في بوينس آيريس وأصبح بطلًا للعدالة، أو أعود إلى تربية الماشية، حيث لا أنتمي، وأحاول أن أفعل شيئًا مفيدًا. لا أعلم. ربما شيء ما مع الأرانب، أو المحليين، هؤلاء الرعاة الفقراء الذين يقبلون بي ويتعاملون معي ولا يشتكون أبدًا. رفضتْ ظلال المدينة أن تقدِّم جوابًا. محافظة على هدوئها، كالعادة، فكر بيريدا بذلك مؤنبًا. لكن عندما انبلج ضوء النهار قرر أن يعود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

جِم (JIM)

روبيرتو بولانيو

منذ عدة سنوات كان لي صديق يدعى جِم، وقد كان أكثر من عرفتهم حزناً من بين الشمال-أمريكيين. لقد رأيت الكثير من الرجال المحبطين، لكن لم يبلغ حزن أحدهم مبلغ حزن جِم. ذهب مرةً إلى البيرو، على أساس أنه سيغيب هناك لستة أشهر، لكنني سرعان ما رأيته ثانيةً. اعتاد أولاد الشوارع المكسيكيين سؤاله: مما يتألف الشِّعر، يا جِم؟ مصغياً إليهم، كان جِم يحدق في السُّحب ومن ثم يبدأ بقذفها بالتعداد: المفردات، البلاغة، البحث عن الحقيقة، الوحي؛ كما عندما تظهر لك السيدة العذراء في رؤيا.تعرض للسلب بالقوة عدة مرات في أميركا الوسطى، ما يبدو مفاجئاً؛ وهو الذي كان من المارينز ومحاربًا في فيتنام. لقد انتهى القتال، ظل جِم يقول، أنا الآن شاعر، أبحث عما هو استثنائي، محاولاً التعبير عنه بكلمات يومية، عادية.

إذن هل تظن أن ثمة كلمات يومية عادية؟

كان جِم يقول: أظن ذلك.

زوجته كانت شاعرة أميركية من أصول مكسيكية، تهدد بين الفينة والأخرى بهجره. أراني صورة لها. لم يكن جمالها مميزاً. كان وجهها ينم عن معاناة، وتحت تلك المعاناة، يجيش الغضب. تخيلتها في شقة في سان فرنسيسكو أو في منزل في لوس أنجلس، بنوافذ مغلقة وستائر مفتوحة، جالسة إلى طاولة، تتناول شرائح الخبز وطبقاً من حساء الخضار. أحبَّ جِم -على ما يبدو- النساء ذوات البشرة الداكنة، ويصفهنّ دون استرسال: نساء التاريخ السرّيات. أما أنا، فأفضّل الشقراوات. مرةً رأيته يشاهد أكلة النار في شارع في مدينة مكسيكو. أبصرته من الخلف ولم أحيِّه، لكن كان واضحاً أنه جِم. قَصة الشَّعر الرديئة، القميص الأبيض المتَّسخ، وتقوّس ظهره؛ كما لو أنه لا يزال مثقلًا بعتاده. بطريقة ما، استحضرتْ رقبته، رقبته الحمراء، صورة قتلٍ وحشيّ في الريف، منظراً طبيعياً بالأبيض والأسود، دون لوحات إعلانية أو أضواء لمحطة وقود -الريف كما هو أو كما يجب أن يكون: براحٌ من الأراضي المعطلة تبهت في التي تليها، غرفٌ أو ملاجئ بجدران قرميدية كالتي هربنا منها، تقف هناك، بانتظار عودتنا. كان جِم يضع يديه في جيوبه. وآكل النار يلوح بشعلته ويضحك بضراوة. وجهه المسوَّد بدا سرمديًا: ربما كان يبلغ خمسة وثلاثين أو خمسة عشر عاماً من العمر. لم يكن يرتدي قميصاً وكان هناك ندبة عمودية تمتد من سرته إلى عظم القص. يملأ فمه بين الحين والآخر بسائل قابل للاشتعال ويبصق أفعى نارية طويلة. سيرقبه الناس في الشارع إلى حين، معجبين بمهارته، ثم يتابعون سيرهم، ما عدا جِم، الذي ظل هناك على حافة الرصيف، ساكناً تماماً، كما لو أنه يتوقع المزيد من آكل النار؛رسالة عاشرة (كونه قد قام بحل التسعة المألوفة)، أو كما لو أنه رأى في ذلك الوجه الخالي من الألوان ملامح صديق قديم أو شخص سبق له قتله. راقبته لمدة طويلة. كنتُ في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمري في ذلك الوقت وأؤمن بأنني مخلّد. لو كنت أدرك أني لست كذلك؛ لكنت استدرت مبتعداً. بعد برهة مللت النظر إلى ظهر جِم وتكشيرات آكل النار. فتقدمت وناديت

باسمه. بدا أن جِم لم يسمعني. عندما التفتَ لاحظت أن وجهه مغطىً بالعرق. بدا أنه محموم، واستغرقه قليل من الوقت ليتعرف إلي، حياني بإيماءة ثم استدار جهة آكل النار. لاحظت، وأنا واقف بجانبه، أنه كان يبكي. ربما كانت حرارته مرتفعة أيضاً. كما أنني اكتشفت شيئاً يفاجئني الآن، وأنا أكتب ذلك، أكثر مما كان يفعل في حينه: كان آكل النار يؤدي عرضه حصرياً من أجل جِم، كما لو أن العابرين بتلك الناصية في مدينة مكسيكو جميعهم لم يكونوا موجودين. كان اللهب يقع أحياناً على مقربة متر من المكان الذي كنا نقف فيه. قلت: ماذا تنتظر، هل تود أن تشوى في الشارع؟ كانت تلك ملاحظة حمقاء، قلتها دون تفكير، لكن بعدها خطر لي أن هذا بالضبط ما كان جِم ينتظره. كانت هناك في تلك السنة كما أذكر، أغنية تشغل باستمرار في بعض الأماكن الخاصة بموسيقا الفانك بلازمة تقول: chingado، hechizado (مسيطراً عليه، مفتوناً). هكذا كان جِم: مسيطراً عليه ومفتوناً. سيطر عليه سحر مكسيكو وها هو الآن يواجه شياطينه. قلت: لنخرج من هنا. وسألته أيضاً عما إذا كان منتشياً أو يشعر بالإعياء. هز رأسه. كان آكل النار يحدق بنا. ومن ثم أخذ يقترب منا، بأوداجه المنتفخة كعولس، إله الرياح. أدركت بسرعة كبيرة أنها ليست الرياح تلك التي ستهب في وجهنا. قلت: لنذهب. وانتزعت جِم بعيداً عن حافة ذلك الرصيف المشؤومة. ابتعدنا في الشارع المؤدي إلى ريفورما، وبعد مسافة افترقنا وراح كل منا في طريقه. لم ينبس جِم بكلمة طوال ذلك الوقت. ولم أره ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيناهنّ نائمات

خابيير مارياس([4])

كنتُ أراهما بشكلٍ يوميّ على مدى ثلاثة أسابيع، ولا أعرف ما حلَّ بهما. ربما لن أراهما مجدَّدا قطّ -أو لن أراها هي على الأقلّ. يميل المرءُ إلى الظنّ أنّ محادثات الصيف، وأسرارَه أيضًا، لن تؤدّي إلى أيّ مكان. لا يملك أحدٌ أن يعترض على ذلك، ولا أنا نفسي؛ ومع ذلك أتساءل عنهما أو ربّما أفتقدُهما قليلًا. فقط قليلًا جدًّا، كما يفتقد المرءُ كلّ ما يختفي.

كنتُ أراهما على الشَّاطئ بشكلٍ دائم تقريبًا، حيث يتعذّر أن تنظر إلى أيّ شخصٍ نظرةً فاحصةً، لاسيّما في حالتي، لكوني مصابًا بحسر البصر، وأفضّل رؤيةَ الأشياء من خلال غشاوةٍ على أن أعود إلى مدريد بما يشبه قناعًا أبيضَ على وجهي المُسمرّ في باقي نواحيه. ولم أضَعْ يومًا عدستيّ اللاصقتيْن عند ذهابي إلى الشاطئ أو البحر، حيث يمكن أن تضيعا إلى الأبد. إلا أنّني، منذ اللحظة الأولى، أغراني التَّنقيب في الحقيبة التي تحتفظ فيها زوجتي لويزا بعلبة نظاراتيّ -حسنًا، في الحقيقة كانت هي مَن أغراني بذلك- لأنّها -إذا استطعتُ أن أصف الأمرَ على هذا النحو- كانت تنقل إليَّ باستمرارٍ ما يقوم به أكثرُ السابحين المحيطين بنا غرابةً من ضروب النشاط الأكثر غرابة.

«نعم، أستطيع رؤيته، لكنْ على نحو ضبابي فقط. لا أستطيع تمييزَ قسماته الفعليّة»، أقول بصوت خفيض على غير حاجة، نظرًا إلى ارتفاع الضجيج على الشاطئ، حين تشير إلى شخصٍ وجدتْه مسلِّيا بصورةٍ خاصّة. وقد أؤذي عينيّ بشدّة اذ استصعب اخراج نظارتي لمجرد انني سأضطر لإعادتهما إلى مخبئهما حال إشباع فضولي. وذاتَ يوم مرّرتْ لي لويزا -التي تعرف أغربَ الأشياء وأقلَّها أهميَّة وتفاجئني دومًا بنُبَذٍ من معارفَ مفيدة- قبَّعتها المصنوعةَ من القشّ -وهي أقربُ إلى يدي من النظّارتيْن المخفيّتيْن لأنها كانت على رأسها- ونصحتني بأن أنظر من خلال خيوطها. فاكتشفتُ أنني أستطيع، بالتَّحديق من خلال هذا «المنخل»، أن أرى كما لو كنتُ أضع عدستيّ اللاصقتين تقريبًا، بل بشكلٍ أوضحَ في الواقع، مع من أنّ مجال رؤيتي قد صغر إلى حدٍّ كبير. منذ ذلك الحين، لا بدّ من أنّني أصبحتُ، أنا نفسي، أحدَ أكثر روّاد الشاطئ تميُّزا أو غرابةَ أطوار، علمًا بأنّه لم يسبق لي وضع قبَّعة نسائيَّة مصنوعةً من القشّ، مزيَّنة بشرائط، مثبَّتةً إلى وجهي بيمنايَ، فيما أنا أمسح بناظريَّ طولَ الشاطئ وعرضَه قرب خليج فورنيلس، حيث كنّا نقيم. اشترت لويزا -من دون أن تنبس بكلمةٍ تنمّ عن تذمّر أو إشارةٍ إلى ضيق- قبَّعة أخرى لم تحبّها كثيرًا، لأنّ القبّعة الأولى التي كانت تنوي استعمالَها لتحمي وجهَها حسنَ الملامح، السمحَ، الخالي حتى الآن من التجاعيد أصبحتْ لي، ليس من أجل رأسي، بل من أجل عينيّ: إنّها القبُّعة التي رأيتُ من خلالها.

ذات يوم، كنّا نستمتع بمتابعة مغامرات بحّار إيطاليٍّ صغير، متمرِّد، عمرُه سنة فقط، لا يرتدي إلّا قبَّعة بحار. وكان يتجوّل هنا وهناك فيما نحن نتبادل أخبارهُ، مدمِّرًا ليس التحصيناتِ الرمليَّة التي بناها إخوتُه وأقرباؤه الأكبرُ سنًّا فحسب، بل انه

دمر أيضاً تحالفاتٍ قد عقدها أسلافه منذ زمنٍ طويل. وكان يفعل ذلك بالثقة التي شرب فيها ماء البحر (بدا أنه ابتلع جالوناتٍ منه)، من دون أيّة مبالاةٍ من طرف العائلات التي كانت ترافقه. كان يضيع قبّعته البحريّة مرارًا وتكرارًا ليبقى بعدئذ في عري تامّ، مستلقيًا على الشَّاطئ مثلَ كيوبيد مطرود. وفي يوم آخر، تتبَّعْنا الانتقاداتِ الاستِّبداديّة والذهاباتِ والإياباتِ المتثاقلةَ لكهلٍ إنكليزيّ -إذْ كانت الجزيرةُ تموج بالبريطانيين- واصل إبداءَ التعليقات المتتالية عن الحرارة، والرمل، والرياح، والأمواج، بكلام واثقٍ وطنّان كما لو أنّه ينطق بسلسلةٍ من الحِكَم أو الأمثال العميقةِ المدروسة مليًّا. كانت لديه فضيلة قد أمست نادرة مؤخراً، كان يرى أن كل شيء مهم، أو بالأحرى أنّ كلّ ما ينبع من المرء يمتلك فضيلةَ أن يَعرف فرادته. كانت طبيعتُه الخاملة بيِّنة في طريقته في الجلوس -ساقاه مبسوطتان دومًا على نحوٍ غير أنيق- وفي حقيقةِ أنّه لم يخلعْ قطُّ التيشيرتَ الأخضرَ الذي حمى به صدرَه العريضَ من الشمس، ولو لم ينزل إلى الماء. وغنيّ عن القول إنّه لم يسبحْ قطّ، وعندما خاض في البحر لم يبتعدْ كثيرًا أبدًا، وقد فعل ذلك فقط كي يلْحق بأحد أولاده كي يلتقط له أو لها صورةً فوتوغرافيَّة مقرّبة أو من زاوية تصويرٍ جيّدة. وقد يعود إلى الشاطئ وبطنُه الأخضرُ، لا صدرُه على، قد بلّلته الأمواجُ، متمتمًا بمزيدٍ من التصاريح التي لا تُنسى، وقد بدّدتها الريحُ في الحال، ويضغط آلة التصوير على أذنه، كأنّها مذياع، قلقًا على ما يبدو من أن تكون قد تبلّلتْ؛ وهذه على ما أتصوّر طريقةٌ بدائيَّة للتحقّق من أنّها لم تصب بأذى. أو أنها كانت آلة تصوير ومذياعًا في آن، كما ظننا.

ثم رأيناهما ذاتَ يوم. أقصد أنّهما لفتا انتباهَنا، حسنًا، انتباهَ لويزا أولًا، وأنا من بعدها من خلال قبّعتي الناظرة. منذ ذلك الحين أصبحا الأثيريْن لدينا، وفي كلّ صباح، ومن دون إدراك، صرنا نبحث عنهما قبل اختيار مكان جلوسنا، ومن ثم نتّخذ مكانًا قريبًا إليهما. مرَّة سبقناهما في الوصول إلى الشاطئ، لكنْ سرعان ما رأيناهما يَصْخبان على درّاجة هارلي دايفيدسون هائلةِ الحجم: هو وراء المقود يرتدي خوذةً سوداء (أربطتُها مرخيّة)، وهي متشبّثة به، يتطايرِ شعرُها الطويلُ خلفها. أظنّ أنّ ما دفعنا إلى ابتغاء رفقتهما هو أنّهما قدّما لنا فرجةً نادرةً، من النوع الذي يصعب عليك أن تشيح ببصركَ عنه: مشهدًا لكائنٍ بشريّ مولعٍ بآخر. وتبعًا للقاعدة القديمة والصحيحة، كان الرجل هو القائمَ بفعل الولع، وكانت المرأة هي المعبودة اللامبالية كما ينبغي (أو ربما كانت سئمةً فقط وتتمنّى لو أنّ لديها ما تشتكي منه). كانت جميلة، متكاسلة، مستسلمة، وبطبعها خاملة. وطوال الساعات الثلاث التي أمضيناها على الشاطئ يوميًّا (هما مكثا فترةً أطول، وربما يقضيان قيلولتهما هناك، ومَن يعلم، فقد يبقيان حتى الغروب)، لم تكد تتحرّك، ولم تكن مهتمَّة، بالطبع، سوى بتجميل نفسها وبنظافتها. أغفت أو كانت، على أي حال، مستلقيةً وهي مغمضةُ العينين، على بطنها، أو ظهرها، أو جنبها، أو على الجنب الآخر، مكسوَّة بالواقي الشمسيّ، ذراعاها النيّران وساقاها ممدودةٌ دومًا بحيث لا يبقى أيُّ جزءٍ من جسمها إلّا مسفوعًا؛ ما من ثنيةٍ في جلدها، ولا حتى إبطيْها أو حقوها (أو من نافل القول، ردفيْها)، لأنّ القطعة السفليّة من لباسها البحريّ كانت بالغةَ الصغر وكشفتْ عن خلوّها من الشعر تمامًا، ما يدفع المرءَ إلى التفكير (حسنًا، دفعني أنا إلى التفكير) أنّها لا بدّ من أن تكون قد استَعملت الشمعَ البرازيليّ قبل قدومها. قد تعتدل

في جلستها بين الحين والآخر، ومن ثم تقضي وقتًا طويلًا وركبتاها مرفوعتان، فيما هي تطلي أظافرَها، أو تتفحّص وجهَها أو كتفيْها بمرآةٍ صغيرةٍ في يدها، باحثةً عن الشوائب أو الشعر غير المرغوب. كان مستغربًا أن تراها ممسكةً بالمرآة لتوجِّهها أمام الأجزاء الأقلّ توقّعًا من جسدها (لا بدّ من أنها كانت مرآةً مكبّرة)، لا نحو كتفيْها فقط، أقصد، بل نحو مرفقيْها، وبطّتيْ ساقيْها، ووركيْها، ونهديْها، وباطنِ فخذيْها، بل سرّتها أيضًا. أنا واثقٌ بأنّ الزغب لم يتجمّعْ يومًا في سرّتها، وربما ما أرادته هو أن تخفيه تمامًا. عدا عن لباسها البحريّ البالغ الصغر، كانت تلبس أساورَ، وعدّة خواتم لا تقلّ عن ثمانية، موزِّعة على أصابعها. لم أرها تجازف في خوض الماء إلّا نادرًا. قد يسهل القولُ إنّ جمالها كان تقليديًّا، لكنه سيكون وصفًا هزيلًا، أو فضفاضًا أو غامضًا أكثرَ ممّا ينبغي. الأحرى أنّ جمالها كان غير حقيقيّ، وهذا يعني أنّه كان مثاليًّا. إنّه ما يظنّ الأطفالُ أنّه الجمال، وهو دومًا تقريبًا (ما لم يكن الأطفالُ قد انحرفوا) جمالٌ نقيٌّ غيرُ مشوب، مستريحٌ، سهلٌ، بلا حراك، ببشرةٍ ناصعةِ البياض، ونهدين كبيرين، وعينين مستديرتين، أو على الأقلّ ليستا لوزيّتين، وشفتين متماثلتين، وهذا يعني أنّ الشفة العلويّة والسفليّة متطابقتان، كما لو أنّ كلتيْهما شفةٌ سفلى: إنّه الجمال الذي تراه في الرسوم المتحرّكة، أو إذا شئتَ، في الإعلانات... وليس في أيّ إعلان، بل في الإعلانات التي تراها في الصيدليّات، خاليةً بشكلٍ متعمّد من أيّ تلميح إلى الشهوانيّة التي قد تزعج نساءً أخرياتٍ أو تزعج الكبارَ في السن، وهم الأكثرُ تردُّدا إلى الصيدليّات. ولكنّه لم يكن كذلك جمالًا بتوليًّا. ومع من أنّني لن أقول إنّه كان جمالًا شاحبًا كالحليب -أو ربما «قشديّ» هي الكلمة المناسبة إذ كان من النوع الذي يستغرق وقتًا كي يتحوّل إلى بنّيّ (كان جلدُها لامعًا، لكنْ ليس ذهبيًّا)- مثل جمال لويزا، فقد كان جمالًا سلسًا، حسيًّا، لكنْ ليس من النوع الذي يترجاك بأن تلمسه (إلّا عندما يُكسى بالملابس ربّما)، كما لو أنّه قد يذوب لدى أدنى اتصال، كما لو أنّ مجرد ملامسةٍ أو قبلةٍ رقيقةٍ يمكن أن تتحوّل إلى عنفٍ أو اغتصاب.

لا ريب في أنّ مُرافقها شعر الشعورَ نفسَه، على الأقلّ خلال ساعات النهار. كان في وسعك أن تدعوه سمينًا أو حتى ضخمًا أو بدينًا، ولا بدّ من أنّه كان يكبرها بأكثر من ثلاثين سنةً. ولقد خالَ، مثلَ الكثير من الرجال الصلعان، أنّ في وسعه تعويضَ ما ينقصه من شَعرٍ بتسريح القليل ممّا لديه إلى الأمام، على الطريقة الرومانيّة (التي لم تنجح يومًا)، وبتنمية شاربٍ كثّ. وأظن أيضًا أنّه يستطيع إخفاءَ عمره، في هذا المكان بالتحديد، بارتداء لباسِ بحرٍ ذي لونين، أي الساق اليمنى خضراءُ زيزفونيّة اللون، واليسرى أرجوانيّة، على الأقلّ تلك كانت ملابسَه المختارة في ذلك اليوم الأول، لأنّه، مثلها، نادرًا ما ارتدى لباسَ البحر نفسَه مرتين. بدا اللونان متعارضين بثبات (طراز السروال لم يتوع أبداً فقط الألوان)، على أنهما كانا دومًا توليفيْن مبتكريْن جدًّا: أزرقَ رماديًّا ومشمشيًّا، خوخيًّا وبلون زهرة الخبيزة، لازورديًّا وأخضرَ نيليًّا. كانت السراويل ضيقةً بقدْرِ ما يسمح به جسدُه المنتفخ -لم يكن صائبًا، في الحقيقة، القولُ إنّ للسراويل ساقين- وهذا عنى أنّ تحرّكاته كانت مقيَّدة على نحوٍ طفيفٍ بالخوف من تمزّق لباس البحر في أيّ وقت. ذلك لأنّه كان في حركةٍ دائمةٍ رشيقة، ممسكًا بآلة التصوير. وفي حين بقيتْ رفيقتُه ثابتةً تمامًا أو متبطّلة لساعاتٍ

بلا توقف، فإنّه لم ينقطع عن الطواف حولها، وهو يصوّرها بلا كلل: قد يقف على أطراف أصابع قدميْه، ينثني، يستلقي على الأرض، على ظهره أو بطنه، يلتقط لقطاتٍ محوريّة، متوسَّطة المدى، صورًا مقرَّبة، متعاقبةً، وبانوراميّة، من الأعلى ومن الأسفل، للوجه، ومن الجانب، ومن الخلف (من كلا الجانبيْن)؛ صوّر وجهَها الهامد، كتفيْها المدوّريْن بنعومة، نهديْها الضخميْن، وركيْها العريضيْن نوعًا ما، فخذيْها المشدوديْن، قدميْها الأبعد من أن تكونا ضئيلتيْن، وأظافرهما المطليّة بعناية، باطنَ قدميْها، بطّتيْ ساقيْها، حقويْها وإبطيْها الحليقة. صوّر قطراتِ العرق التي أثارتها الشمسُ، ربما صوّر مسامَها أيضًا -مع أنّ جلدها الناعمَ المتّسق ذاك بدا عديمَ المسامِ، من دون تغضّنات أو كدمات، ولم تكدّر ردفيْها أيُّة علامةِ مطّ. صوّرها الرجلُ السمينُ كلّ يوم على مدى ساعات، مع بعض الاستراحات، المشهدَ نفسَه دومًا: سكونَ الجمال المصطنع الذي يصحبه، وضجرَه. لم يكن مهتمًّا بالرمل أو بالماء، الذي يتغيّر لونُه مع تقدّم ساعات النهار، أو بالأشجار أو بالصخور البعيدة، أو بطائرةٍ ورقيّةٍ تحلّق، أو بمركبٍ يبتعد، أو بالنساء الأخريات، أو البحار الإيطالي الصغير، أو بالإنجليزيّ المستبدّ، أو بلويزا. لم يطلب من الشابّة أن تفعل شيئًا، أن تلعب الألعاب، أن تبذل جهدًا أو أن تتّخذ وضعيَّةً خاصَّة. بدا قانعًا بتسجيلٍ بصريّ، يومًا بعد يوم، لتلك الشخصيّة العارية المنحوتة، ولذلك اللحم الطيّع المتواني، ولذلك الوجهِ غير المعبِّر، ولتلك العيونِ المغلقة أو ربما المتأنِّفةَ، لركبةٍ تنثني، أو لنهدٍ يميل، أو لسبّابة تمسح ببطءٍ بقعةً من على خدّ. كان جليًّا أنّ ذلك المنظرَ الرتيب يشكّل مصدرًا خالدًا للدهشة والجِدّة بالنسبة إليه. ولأن لا لويزا، ولا أنا، ولا أيُّ شخص آخر شاهد شيئًا خلاف التكرار والملل، كان لا بد أن يرى في كل لحظة مشهدًا لافتًا متعدّد الأشكال، ومتنوّعا، ومستحوِذًا؛ كحالِ المُشاهد الذي يتأمل لوحةً فنيّةً فيفقد كلَّ إحساسٍ بالزمن في حين أنّ هناك لوحاتٍ أخرى تنتظره، يفقد بالتالي عادةَ النظر، التي استُبدلتْ، أو حلّت محلّها -أو ربّما ألغتها- المقدرة على الرؤية، وهذا ما لا نفعله غالبًا لأنه على خلافٍ كبيرٍ مع الزمانية الصرفة. ذلك لأنّ المرء حينئذٍ يرى كلَّ شيء، الأشخاصَ والخلفيّةَ، الضوءَ، التركيبَ والظلال، الأبعادَ الثلاثة والمستوي، الصباغَ والخطّ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلّ ضربةِ فرشاة. أي إنّ المرء يرى، في آنٍ معًا، ما هو مرسومٌ والسطح الخشن للكانفاس، وحينها فقط يمكن أن يرسم الصورة ثانيةً بعينيه.

تحدّثا قليلًا، وبين الحين والآخر فقط، بجملٍ قصيرةٍ لا تتحوّل أبدًا إلى محادثةٍ أو حوار، إذ مات أيُّ تلميحٍ إليهما من تلقاء نفسه، يقطعُه الاهتمامُ الذي كانت المرأةُ تمنحه جسدَها، الذي كانت غارقةً فيه تمامًا، والاهتمامُ غيرُ المباشر الذي كان الرجل يمنحه جسدَها أيضًا، من خلال آلة تصويره. في الواقع، لا أذكر أنّه توقف قطّ لينظر إليها مباشرةً، بعينيه، من دون أن يَحُول شيء بين عينيه وبينها. وفي هذا كان مثلي، لأنّني رأيتُهما، بدوري أيضًا، إمّا من خلال غشاوة حسر بصري، أو من خلال قبّعتي المقرِّبة. من بيننا نحن الأربعة، كانت لويزا وحدها التي رأت كلَّ شيء من دون صعوبة أو وساطة لأنني لا أظنّ أنّ المرأة نظرتْ أو رأت أيَّ شخص، وهي نفسُها استعملتْ مرآتها غالبًا كي تتفحّص وتفتّش فقط، وغالبًا ما كانت تضع نظارة شمسيّة عصريّة باهظة الثمن.

«الشمس حارّة اليوم، أليست كذلك؟ يجب أن تضعي كميَّة إضافيَّة من الواقي الشمسيّ، أنت لا ترغبين في الاحتراق»، يقول الرجلُ البدين، في وقفةٍ عابرةٍ عن جولاته الدائريّة حول جسد معبودته. وعندما لا يلقى جوابًا فوريًّا سينطق باسمها، كما تنطق الأمُّ بأسماء أولادها: «إينيس. إينيس».

«نعم، إنّها بالتأكيد أكثرُ حرارةً من البارحة، لكني وضعتُ بعض الواقي الشمسيّ رقم 10، فلن أحترق»، أجاب الجسدُ، إينيس، على مضضٍ، وبصوتٍ يكاد لا يُسمع، وهي تنتف شعيْرةً من ذقنها بملقطٍ صغير.

وستنتهي المحادثة عند هذا الحدّ.

وذاتَ يوم قالت لويزا (فنحن نتبادل الأحاديث فعلًا):

«بصراحة، لا أعرف إنْ كنتُ سأستمتع بأن أتصوّر، حالَ المسكينة إينيس. هذا قد يثير قلقي، مع أنّني أخالُ أنّني سأعتادُه في النهاية، إنْ كان أحدُهم سيفعل ذلك طوال الوقت كما يفعل الرجلُ البدين. ومن ثمّ ربّما سأعتني بنفسي كما تفعل، مع أنّها قد تكون يقظةً إلى هذا الحدّ فقط لأنّها عرضةٌ للتصوير باستمرار، أو لأنّها ستشاهد نفسها لاحقًا على شاشة، أو ربّما تفعل ذلك لأجل الذريّة».

فتّشتْ لويزا في حقيبتها، فأخرجتْ مرآةً صغيرة، وتفرّستْ في عينيها، اللتين كان لونُهما في الشمس بلون الخوخ، وفيهما نقاطٌ قزحيُّة اللون. «ومن جديد، أيُّ ذريِّة سوف تريد أن تضيع وقتَها في مشاهدة هذه الأشرطة المصوّرة المملّة؟ هل تظنّ أنّه يصوّرها بقيّة اليوم أيضًا؟»

«ربّما»، قلت. «ولماذا يحدّ نفسَه بالشاطئ؟ أشكّ في أنّه يحتاج إلى ذريعة كي يراها عارية».

«لا أظنّ أنه يصوّرها لأنّها عارية، بل طوال الوقت، ربما حتى وهي نائمة. إنه لأمرٌ مؤثّر حقيقةً. فمن الواضح أنّه لا يفكّر إلّا فيها. لكنّني لا أعرف إنْ كان ذلك سيعجبُني. المسكينة إينيس. لا تبدو أنّها تمانع».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الليلة، عندما أوينا إلى سريرنا المزدوج في الفندق، في وقتٍ واحد، كلٌّ على جهته، استلقيتُ وأنا أفكّر في الأشياء التي قلناها ودوُّنتها للتو. عاجزًا عن النوم، أمضيتُ وقتًا طويلًا أراقب لويزا نائمةً في الظلمة، وليس يضيئها سوى نورِ القمر. «مسكينة إينيس،» كانت قد قالت. كان تنفُّسها خافتًا جدًّا، لكنّه لا يزال مسموعًا في صمتِ الغرفةِ والفندقِ والجزيرة. وكان جسدُها ثابتًا، بصرف النظر عن جفنيْها، اللذين كانت عيناها تتحرّكان تحتهما بلا شكّ، كأنّهما لم تستطيعا أن تألفا ألّا تفعلا ليلًا ما كانتا تفعلانه آناءَ النهار. فكّرت: ربّما يكون الرجلُ البدين هو الآخر يقظًا، يصوّر جفنَي الجميلة إينيس الساكنيْن تمامًا، أو ربّما يسحب الملاءاتِ عنها، وبحذرٍ شديدٍ يسوّي جسدَها في وضعيّات مختلفةٍ ليصوّرها في نومها: برفع قميص نومها ربّما، أو بمباعدةِ ساقيْها إذا لم تكن ترتدي قميصَ نوم أو بيجاما. لويزا لا ترتدي في الصيف قميص نوم او بيجاما، بل تلفُّ الملاءةَ من حولِها مثل ثوبٍ رومانيّ، تضمّها

إليها بيديْها معًا، وقد ينكشف إحدى كتفيها أو نقرة عنقها أحياناً، وحينها -إذا لحظتَ ذلك- أغطّيها دائمًا. أحيانًا كان عليّ أن أناضل قليلًا لأتأكَّد من وجود جزءٍ كافٍ من الملاءة على جانبي من السرير. ولكن هذا كان يحدث في الصيف فقط.

نهضتُ ومضيتُ نحو الشُّرفة لقتل الوقت حتى يأتيني النوم. ومن هناك، مستندًا إلى الدرابزين، تطلّعت إلى السماء، ومن ثمّ إلى أسفل. حينها خُيّل إليَّ أنّني رأيتُ البدينَ جالسًا بمفرده، بمحاذاة حوض السباحة، في العتمة، والمياهُ لا تعكس إلّا النجوم. لم أتعرّف إليه أوَّل الأمر، لأنّه كان من دون الشارب الذي اعتدتُ رؤيتَه كلّ يوم، بما في ذلك هذا الصباحَ نفسَه، ولأنّه كان على عيوننا أن تكيّف نفسَها لكي ترى شخصًا، اعتدنا رؤيتَه عاريًا، ولكنّه الآن بكسوته الكاملة. كانت ملابسُه مثلَ ثوب السباحة الثنائيّ اللون قبحًا وتنافرًا. كان يرتدي قميصًا فضفاضًا، بدا أسودَ اللون من شرفتي (من بعيد) لكنّه ربّما كان مشجَّرا، وبنطالًا واسعًا زاهيَ اللون، بدا لونُه أزرقَ فاتحًا جدًّا، وربما كان ذلك بسبب انعكاس الماء القريب غير المرئيّ، الذي كان يمكن لشدّة قربه أن يبلّله بالرذاذ لو كانت ثمّة أمواج. وكان ينتعل خفًّا أحمرَ، وبدت جواربه من لون بنطاله (تخيل ارتداء جوارب على جزيرة!)، ولكن هذا اللون قد يكونُ من تأثير انعكاس ضوء القمر على المياه. كان يوسّد رأسَه إحدى يديْه، والمرفقُ المقابلُ على ذراع كرسيّ شاطئ، مزيَّن برسوم من الزهور (كان هناك نموذجان متاحان من الكراسيّ قرب الحوض: مخطّط ومزهر). لم تكن معه آلةُ التصوير. لم أكن أعرف أنّهما كانا يقيمان معنا في الفندق نفسه، إذ إنّنا لم نرهما سوى على الشاطئ المجاور، شمالَ فورنيلس، في الصباحات. كان بمفرده، هامدًا مثلَ إينيس، مع أنّه بين الحين والآخر كان يبدّل وضعيَّة الرأس والمرفق المسترخية تلك بوضعيّة أخرى معاكسةٍ فيما يبدو، فيغدو وجهُه مدفونًا بين يديْه، وقدماه ممدودتيْن، كأنّه منهك أو متوتّر أو ربّما يضحك بينه وبين نفسه. عند نقطة معيّنة خلع فردةً من حذاءه، أو أفلتتْ منه من دون قصد، لكنّه لم يبسط قدمَه في الحال لاستعادتها، بل مكث على هذه الحال وقدمُه المجوْربةُ على العشب، ما جعله يبدو بائسًا؛ على الأقلّ هذا ما رأيتُه من مكاني في الطابق الرابع.

كانت لويزا نائمةً، وقد تكون إينيس نائمة أيضًا؛ فهي ربّما تحتاج إلى عشر ساعات على الأقلّ من النوم لكي تحافظ على جمالها الثابت. ارتديتُ ثيابي في الظلمة حريصًا على عدم إصدار أيّ ضوضاء، وتأكّدت من أنّ لويزا ملتحفةٌ جيِّدا في ملاءتها التي تلفّها عليَّها مثل ثوب روماني. ومع أنّها غفلتْ عن مغادرتي السرير، فإنّها لا بدّ من أن تكون قد أحسّت بذلك أثناء نومها، لأنّها باتت الآن تستلقي على نحوٍ مائل، غازيةً مساحتي من السرير بساقيْها. نزلتُ بالمصعد من دون أن أتحقّق من الوقت، ومررتُ بالحارس الليليّ الذي كان نائمًا على نحوٍ غير مريح، رأسُه على النضد كأنّه موضوعٌ تحت مقصلة.

كنت قد تركتُ ساعتي في الغرفة، وكان السكونُ يعمّ المكان، بمعزلٍ عن الضجّة الخفيفة التي أحدثتُها بخفّي الأسود (وأنا لم أكن أرتدي جواربَ). فتحتُ البابَ الزجاجيّ الذي يفضي إلى حوض السباحة، وحالما صرتُ على العشب في الخارج أغلقتُه في الحال. رفع الرجلُ البدينُ رأسه. ألقى نظرةً إلى الباب، فلحظني من فوره،

لكنه لم يميزني، أقصد أنّه لم يتعرّف إليَّ في الضوء الشاحب. لهذا السبب، لأنّه لحظني في الحال، تحدُّثت إليه، فيما أنا أمشي نحوه، وفيما بدأت انعكاساتُ القمر في المياه تكشفني وتُغيّر ألواني كلّما اقتربتُ.

«لقد حلقتَ شاربك»، قلتُ، وأنا أمرِّر سبّابتي على المكان الذي ينبت فيه الشاربُ عادةً، غيرَ واثقٍ تمامًا بضرورة الإدلاء بتعليقٍ كهذا. بحلول اللحظة التي كان يمكن أن يجيبَني فيها كنتُ قد وصلتُ إلى جانبه وجلستُ على كرسيٍّ بحرٍ آخرَ، مخطِّط، إلى جواره. كان قد اعتدل في جلسته، مسندًا يديْه على ذراعَي الكرسيّ، وهو ينظر إليّ مربَكًا بعض الشيء، ومن دون أيّ شبهةِ تشكيك، كما لو أنّه لم يفاجأ مطلقًا برؤيتي، أو برؤية أيّ شخصٍ آخر هناك. أظنّ أنّها كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أرى فيها وجهَه مباشرةً أو عن قربٍ -من دون أن تكون آلةُ التصوير على عينيْه أو القبُّعة على عينيّ. وكان بصري قد اعتاد الآن الضوءَ الخافتَ، بعد الفترة الوجيزة التي أمضيتُها في التحديق من الشرفة. كان ذا وجهٍ أليفٍ، وعينيْن يقظتيْن، ولم تكن قسماتُه قبيحةً؛ حسبُه أنّه بدين. ولقد بدا لي مثلَ أولئك الرجال الصلعان الوسيمين، كالممثّل ميشيل بيكولي، أو ريشتر عازفِ البيانو. بدا أصغر سنًّا من دون شاربه، أو ربّما كان كذلك بسبب الخفّ الأحمر، الذي كانت إحدى فردتيه مقلوبةً على العشب. ولكنْ لا بدّ من أنّه كان في الخمسين من عمره على أقلّ تقدير.

«أوه هذا أنت. لم أتعرّفْ إليك أوّل الأمر وأنت في ملابسك؛ فنحن كنّا نرى بعضنا بعضًا عادةً في ثياب البحر». قال بالضبط ما سبق أن فكّرت فيه عندما كنتُ في غرفتي فوق. فلقد أمضيْنا تقريبًا ثلاثة أسابيع نرى بعضنا بعضًا يوميًّا، ومن المستحيل ألّا تكون عيناه المشغولتان قد تريّثتا، ذاتَ لحظة، بالرغم من كلّ شيء، عليَّ أو على لويزا. «ألا يمكنك النوم؟»

«لا»، قلت. «المكيّف في الغرفة لا يساعد دومًا. الأفضل الخروج إلى هنا. هل تمانع في انضمامي إليك لفترة؟»

«كلّا، بالتأكيد كلّا، أُدعى ألبرتو فيانا»، وصافحَني، «أنا من برشلونة».

«أنا من مدريد»، قلتُ وأخبرتُه باسمي. ران صمتٌ، وتساءلتُ إنْ كان عليَّ أن أبدي ملاحظةً تافهةً حول الجزيرة أو العُطَل أو ملحوظةً أخرى من النوع التافه نفسِه عن النشاطات التي شهدناها على الشاطئ. كان فضولي بشأن تلك النشاطات هو ما قادني إلى جانبه عند حوض السباحة -حسنًا، فضولي ذاك وأرَقي، على أنّه كان بإمكاني مواصلة النضال مع أرقي في الغرفة، أو حتى بإيقاظ لويزا، لكنّني لم أفعل. كنتُ أتحدّث بما يشبه الهمسَ. وكان مستبعدًا أن يسمعَنا أحد، لكنّ رؤيةَ لويزا والحارسِ الليليِّ غارقيْن في النوم منحتني شعورًا بأنّ رفعي لصوتي سوف يقلق نومَهما. وفي الحال أصابت نبراتُ صوتي الهادئة فيانا بالعدوى، أو أثّرت في طريقته في الكلام.

«لاحظتُ أنّك مولعٌ جدًّا بآلات تصوير الفيديو»، قلتُ بعد تلك الوقفة وذلك التردّد.

«آلات تصوير الفيديو؟» قال متفاجئًا بعضَ الشيء، أو كأنّه كان راغبًا في كسب الوقت. «آه، فهمتُ. لا، ليس تمامًا. أنا لا أهوى جمعَ الأشياء. ليست آلةُ التصوير في حدّ ذاتها هي ما يثير اهتمامي، على استخدامي إيّاها كثيرًا، بل صديقتي، التي رأيتَها بالتأكيد. أنا لا أصوّر غيرَها، ولا شيءَ سواها. أنا لا أمارس التجاربَ مع آلات التصوير على الإطلاق، وأتصوّر أنّ ذلك بيِّن إلى حدٍّ ما. ربما لحظتَ ذلك». وضحك ضحكةً قصيرةً، نصفَ لاهٍ، نصفَ محرَج.

«نعم، بالتأكيد، لاحظنا ذلك أنا وزوجتي معًا. أظنّ أنّها تشعر بالحسد قليلًا من الاهتمام الذي تُغْدقه على صديقتك. وهذا غيرُ مألوفٍ كثيرًا. أنا لا أملك ولو آلةَ تصويرٍ عاديَّة. لكنْ، من ناحية أخرى، مضى على زواجنا وقتٌ طويل».

«لا تملك آلةَ تصوير؟ ألا تودّ أن يكون في وسعك أن تتذكّر أمورًا ما؟» سألني فيانا هذا السؤال بارتباكٍ صادق. وكما كنتُ أتصوّر فقد كان قميصُه مشجَّرا، مزيجًا من أشجارِ نخيلٍ متعدِّدة الألوان ومَراسٍ ودلافينَ ومقدِّماتِ سفن، لكنّ اللون الطاغي هو الأسودُ الذي سبق أن رأيتُه من غرفتي في الأعلى. لونُ بنطاله وجواربه ما يزال يبدو أزرقَ شاحبًا، أكثرَ زرقةً من بنطالي الأبيض، الذي كان الآن مثلَ بنطاله، معرَّضا لا لضوءِ القمر وحده، بل لانعكاس القمر الشاحب على المياه أيضًا.

«نعم، أودُّ ذلك بالتأكيد، لكنْ يمكنكَ أن تتذكّر الأمورَ بطرقٍ أخرى، أفلا تظنّ ذلك؟ جميعُنا يَملك آلةَ تصويره الخاصّة في ذاكرته، إلا أنّنا لا نتذكّر دومًا ما نريد أن نتذكّره، ولا ننسى ما نفضّل نسيانَه».

«أيّ هراءٍ هذا»، قال فيانا. كان رجلًا صريحًا، وليس من النوع الحذر على الإطلاق، وقد يقول أمورًا من دون أن يسيءَ إلى محدِّثه. ضحك ضحكةً أخرى مقتضبة. «كيف يمكن أن تقارن ما تستطيع أن تتذكّره بما تستطيع أن تراه، بما تستطيع أن تراه مجدَّدا، تمامًا كما حدث؟ بما تستطيع أن تراه مرارًا وتكرارًا، إلى الأبد، بل تستطيع أن تضغطَ على زرّ التوقف، وهو ما لم تستطع فعلَه عندما رأيتَ ما رأيتَ في الواقع؟ أيّ هراء!» قال مكرِّرا.

«نعم، أنت محقّ»، وافقتُه.» لكنّني لا أظنك تصور صديقتك طول الوقت كي تتمكن من تذكرها لاحقًا حين تشاهدها على الشاشة. أو لعلّها ممثّلة. فلن يكون لديها الوقتُ حقًّا، بالنظر إلى أنك تصوّرها يوميًّا كما يبدو. وإذا كنتَ تصوّرها يوميًّا فلن يكون هناك وقتٌ لأن يذهب ما سجلته إلى النسيان، ولأن تشعرَ بالحاجة إلى تذكّرها على ذلك النحو المخلص بمشاهدتها ثانيةً على بمشاهدة الفيلم ثانية. إلّا إذا كنتَ تحتفظ بالأفلام إلى الزمن الذي تصبحان فيه طاعنيْن في السنّ وترغب في إحياء ذكرى إقامتك هنا في مينوركا ساعةً بساعة».

«أوه، أنا لا أحتفظ بجميع أفلامي المصوّرة، لا، فقط بعض الأجزاء الموجزة، ربما ما يقدَّر بشريطٍ واحدٍ كلّ ثلاثة أشهرٍ أو أربعة. لكنّها جميعها محفوظة في برشلونة. ثم إنّها ليست ممثّلة، ما تزال صغيرةً جدًّا. ما أفعله هنا (وفي بلادي أيضًا) هو أنّي أنتظر يومًا قبل أن أمحوَ شريطَ اليوم السابق، إذا كنتَ تفهم ما أعنيه. لم أستعمل طوال هذا الوقت سوى شريطين، ودَومًا الشريطين نفسيهما. فأسجِّل على واحدٍ

اليوم وأحتفظ به، ثم أسجِّل على الآخر غدًا وأحتفظ به، ومن ثم، في اليوم الذي يليه، أسجّل فوق الأوّل، فأمحوه بتلك الطريقة، وهكذا دواليك، إذا كنتَ تفهم ما أعنيه. ولكن لا أظنّ أنه سيكون لديّ الوقتُ لأصوّر الكثيرَ غدًا لأنّنا سنعود إلى برشلونة. لقد انتهت عطلتي».

«آه، فهمت. لكنْ ماذا ستفعل عند عودتك؟ ستصنع توليفةً من كلِّ ما صوَّرته؟»

«لا، أنت لم تفهم. الفيديوهات الفنيّة شيء، صُنعتْ لكي تُحفظَ جانبًا؛ توضع جانبًا، بمعدّل شريطٍ واحدٍ كلّ أربعة أشهر تقريبًا. أما الأشرطة اليوميّة فمسألةٌ منفصلة؛ فهذه تُمحى كلّ يومين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربّما بسبب تأخّر الوقت (فقد تركتُ ساعتي في الغرفة) كنتُ أشعر بأنّني ما زلتُ غيرَ مستوعبٍ للأمر تمامًا، لا سيّما الجزء الثاني من شرحه. ولم أكن مهتمًّا إلى حدٍّ كبير بالاتجاه الذي نَحتْ إليه المحادثة -حول الفيديوهات الفنيّة (فهذا ما قاله، وقد سمعته)- والأشرطةِ الممحوّة، أيْ أشرطة كلِّ يوم بيومه. فكّرت في أن أقول له «ليلةً سعيدةً» وأعود إلى غرفتي، لكنّني لم أكن أشعر بالنعاس بعد. وفكرت في أنّني لو عدتُ فعلًا فقد ينتهي بي الأمرُ إلى إيقاظ لويزا لمجرّد أن تتحدَّث إليّ، وهذا لن يكون عدلًا. وبدا من الأفضل التحدُّث إلى شخصٍ مستيقظٍ سلفًا.

قلتُ، «لكنْ لماذا تصوّرها كلَّ يوم إذا كنتَ ستمحو الأشرطةَ فيما بعد؟»

«أصوِّرها لأنّها ستموت». كان قد مدّ قدمَه المجورَبة، وغمس إبهامَها في المياه، محرِّكًا إيّاه ببطءٍ، جيئةً وذهابًا، وساقُه ممدودةٌ بالكامل، لأنّه لم يستطع أن يبلغ أبعدَ من السطح. صمتُّ بضعَ ثوانٍ، ثمّ سألته، وأنا أراقبه وهو يحرّك المياهَ ببطء:

«أهي مريضة؟»

زمّ فيانا شفتيْه ومرّر يدَه على رأسه الأصلع، كأنّه ما يزال يملك شعرًا كان يُملّسه في الماضي. كان يفكّر. تركتُه يفكّر، لكنّه استغرق وقتًا طويلًا جدًّا. تركتُه يفكّر. أخيرًا تحدّث ثانيةً، لا ليجيب عن سؤالي الأخير، بل عن الذي سبقه.

«أصوِّرها كلَّ يوم لأنّها ستموت، وأرغبُ في أن يكون لديّ تسجيلٌ ليومها الأخير، لما قد يكون يومَها الأخير، فأتمكّن من تذكّره حقيقةً، وأستطيع بعد موتها رؤيتَه من جديدٍ في المستقبل كلّما رغبتُ في ذلك، جنبًا إلى جنب مع الفيديوهات الفنيّة. ذلك لأنّني أحبّ فعلًا أن أتذكّر الأشياء».

«لكنْ هل هي مريضة؟» سألتُ ثانيةً.

«لا، ليست مريضة»، قال هذه المرّة من دون وقفةٍ للتفكير. «أقلّه على حدّ علمي. لكنّها ستموتُ يومًا ما. أنت تعلم، كما يعلم الجميع، أنّ كلّ الناس سيموتون، بمن فيهم أنا وأنت، وأرغبُ في حفظ صورتها. إنّ آخرَ يومٍ في حياةِ أيّ شخص لهوَ يومٌ مهمّ».

«بالتأكيد»، قلتَ وأنا أنظر إلى قدمه. «أنت شخصٌ محتاط فحسب. فلربّما تصاب صديقتك في حادث، على سبيل المثال». وفكّرت (لكنْ لوهلةٍ فقط) أنّ لويزا لو ماتت في حادثٍ فلن يكون لديّ الكثيرُ من الصور لتذكّرني بها، بل لا صور تقريبًا. كانت هناك صورٌ متفرقةٌ حول المنزل -صور عاديّة، بالتأكيد، لا فنيّة- لكن القليل منها فقط. وأنا لا أملك بالتأكيد أيَّة تسجيلاتٍ بصريّةٍ لها. وبغير قصد، رمقتُ عاليًا الشرفةَ التي كنتُ أراقب منها فيانا. لم تكن هناك أضواءٌ على أيّة شرفةٍ أو غرفة، ومن ثمّ لا أضواء أيضًا في الغرفتين اللتين تخصّان إينيس وفيانا. لم أكن هناك على شرفة غرفتنا الآن. لم يكن هناك أحد.

كان فيانا غارقًا في التفكير مجدَّدا، مع أنّه رفع قدمَه من الماء وأعادها ثانيةً -كان طرفُ الجوربِ رطبًا وداكنًا- على العشب. بدأتُ أفكّر في أنّ منحى المحادثة ربّما لم يعجبْه، وفكّرت من جديدٍ في أن أقول «ليلةً سعيدةً» وأصعدَ إلى غرفتي. نعم، فجأةً أردتُ الصعود إلى غرفتي لأرى من جديدٍ صورةَ لويزا نائمةً -لا ميتةً- ملتحفةً بغطائها، وربّما إحدى كتفيها مكشوفة. لكنّ المحادثات، عندما تبدأ، لا يمكن التخلّي عنها بهذه السهولة. لا يمكن تركُها معلّقة، باستغلال لحظةِ ذهولٍ أو صمتٍ، إلّا إذا كان أحدُ المتحدثيْن غاضبًا. ولم يبدُ فيانا غاضبًا، على أنّ عينيه اليقظتيْن بدتا أكثرَ تيقّظا وحدّة ممّا كانتا عليه أصلًا؛ وكانت تصعب معرفةُ لونهما في الضوء الذي يسلّطه القمرُ على المياه. أظنّ أنّهما كانتا بنيّتيْن. لا، لم يبدُ غاضبًا، وإنّما منغمسًا فقط في ذاته قليلًا. وكان يقول شيئًا، لا همسًا الآن، بل كأنّه يدمدم لنفسه.

«آسف، ماذا قلت؟» سألتُ.

«لا، ليست المسألة أنّني أظنّ أنّها قد تتعرّض لحادث»، أجاب وصوتُه قد ارتفع كثيرًا فجأةً، وكأنّه أخطأ في تقدير تبديل النبرة بين الحديث إلى نفسه والحديثِ إلى شخصٍ آخر.

«أخفضْ صوتك»، قلتُ قلقًا، مع أنّ شيئًا لم يكن يدعو إلى القلق، إذ يُستبعد أن يسمعَنا أحد. نظرتُ ثانيةً إلى الشرفات، لكنّها كانت لا تزال جميعُها قابعةً في العتمة، ولم يكن قد استيقظ أحد.

أجفل طلبي فيانا، وفي الحال خفض صوتَه. لكنّه لم يكن مروَّعًا إلى درجةٍ تمنعه من مواصلةِ ما شرع في قوله بصوتٍ شديدِ الارتفاع. «قلت إنّ المسألة ليست إنْ كنتُ أظنّ أنّها قد تتعرّض لحادث. لكنّها ستموت قبلي بالتأكيد، إنْ فهمتَ ما أعنيه».

نظرتُ إلى وجه فيانا، لكنّه لم يكن ينظر إلي. كان يحدّق إلى السماء، إلى القمر، متفاديًا عينيّ. كنّا على جزيرة.

«لماذا أنت متيقّن إلى هذا الحدّ إنْ لم تكن مريضة؟ أنت أكبر منها سنًّا بكثير. والأمر الطبيعيّ هو أن تموتَ قبلها».

ضحك فيانا ثانيةً، وإذ مدّ ساقه أكثر، فقد غمس كاملَ قدمه المجوربة في الماء هذه المرّة وراح يحركها ببطء وتثاقل، أكثرَ من ذي قبل، لأنّ قدمه بأكملها الآن -تلك القدم العريضة البدينة- باتت مغمورةً في الماء.

«الأمر الطبيعيّ»، قال ضاحكًا. «الطبيعيّ»، كرّر. «لا شيءَ طبيعيًّا بيني وبينها. أو بالأحرى لا شيءَ طبيعيًّا في ما خصّ علاقتي بها، ولم يكن يومًا كذلك. عرفتُها منذ أن كانت طفلة. ألا ترى؟ أنا أعشقها».

«بلى، أرى ذلك. من الواضح أنّك تعشقها. أنا أعشق زوجتي لويزا أيضًا»، أضفتُ، رغبةً منّي في مجابهةِ ما أعده -صراحةً- الطابعَ الاستثنائيَّ لعشقه لإينيس. «لكنّنا، أنا ولويزا، في العمر نفسِه تقريبًا، فمن الصعب أن نَعرف مَن سيموتُ قبل الآخر».

«أنت تعشقها؟ لا تُثِرْ ضحكي. إنّك لا تملك ولو آلةَ تصوير! ولستَ مهتمًا جدًّا أيضًا بتذكّرها تمامًا كما كانت حين تفقدُها؛ لستَ مهتمًّا جدًّا بأن تكون قادرًا على رؤيتها مجدَّدا حين لن تستطيعَ النظرَ إليها».

هذه المرّة أزعجتني ملاحظةُ البدين فيانا قليلًا، ووجدتُها سليطةً. لاحظتُ ذلك لأنّني شعرتُ أنّ هناك شيئًا ما جريحًا ولاإراديًّا في صمتي التالي، وشيئًا مخيفًا أيضًا، كما لو أنّني لم أعد أجرؤ فجأةً على سؤاله عنِ أيّ شيء، وكما لو أنّني لم أعد أملك -منذ تلك اللحظة- إلّا خيارَ الإصغاء إلى كلّ ما يختار أن يقولَه لي. كأنّ الملاحظة المفاجئة الفظّة طغت على المحادثة كليًّا. وأدركتُ أنّ خوفي ناجمٌ أيضًا عن استعماله لصيغة الماضي؛ لقد قال «تمامًا كما كانت»، مشيرًا إلى لويزا، في حين كان ينبغي أن يقول «تمامًا كما هي».

وقرّرت أن أتركَه وأعودَ إلى غرفتنا. أردتُ أن أرى لويزا وأنامَ إلى جانبها، أن أستلقيَ وأسترجعَ مكاني في السرير المزدوجِ المشابهِ، بلا شك، للسرير الذي تتقاسمه إينيس وفيانا؛ فجميعُ الغرف الفندقيّة العصريّة متشابهة. يمكنني بسهولة أن أنهي المحادثة. كنتُ أشعرُ بالغضب إلى حدّ ما.

لكنّ الصمت لم يستغرقْ إلّا بضع ثوانٍ لأنّ فيانا واصل الكلامَ، من دون هذه الوقفة التي وقفتُها وأنا أكتب، وحينها كان الأوان قد فات على عدم مواصلة الإصغاء.

«ما تقوله صحيح جدًّا، لكنّ حلّ المسألة لا يحتاج إلى عبقريّ. من الصعب فعليًّا أن تعرف مَن سيموت أوّلًا؛ ذلك يعادل أن ترغبَ في معرفة ترتيب ميتاتنا. ولتعرفَ ذلك، يجب أن تكونَ لك يدٌ في هذا الترتيب، إنْ فهمتَ قصدي، لا بهدف عرقلته -فذلك سيكون مستحيلًا- بل لتكون جزءًا منه. اسمعْ، عندما قلتُ إنّني أعشق إينيس، فقد عنيتُ ذلك حرفيًّا: أعشقُها. ليست هذه مجرَّد صياغةٍ مميّزة، أو تعبيرٍ أجوفَ وعاديّ، يمكننا تقاسمُه أنا وأنت، على سبيل المثال. ما تسميه «عشقًا» لا صلة له البتَّة بما أسمّيه «عشقًا». نحن نتقاسم الكلمةَ لأنّه ما من سواها، لكنّنا لا نتقاسم ما تصفُه. أعشقُها وعشقتُها منذ أن قابلتُها لأوّل مرة، وأعرفُ أنّني سأستمرُّ في عشقي لها سنواتٍ قادمةً كثيرة. لهذا لا يمكن هذا الأمرَ أن يدوم مدَّة أطولَ بكثير، لأنّ ذلك الشعور بقي في داخلي لسنواتٍ عديدةٍ ثابتًا من دون اختلافٍ أو وهن. لن يكونِ هناك اختلافٌ من جانبي، وسيصبح ذلك أمراً لا يطاق، بل هو كذلك الآن. فيوماً ما لن أطيق كل هذا، فسيكون عليها أن تموتَ قبلي، حين لن أستطيع تحمّل عشقي لها. يومًا ما سيتوجّب عليَّ قتلُها. هل تفهم؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع قوله ذاك رفع فيانا قدمَه المبلَّلة من الماء، وأسندها بعنايةٍ واستهجانٍ على العشب، وسحب معها الجوربَ الحريريَّ المشبعَ بالماء.

«ستصاب بالبرد»، قلت. «من الأفضل أن تخلع جوربَك».

أخذ فيانا بنصيحتي وخلع الجوربَ المبلّل في الحال، تلقائيًّا ومن دون اكتراث. ولثوانٍ أمسك به، باستهجانٍ أيضًا، بين إصبعين، ومن ثم ثناه على ظهر كرسيّه، حيث بدأ يتقطّر (وتفوح منه رائحةُ قماشٍ رطب). أصبحت إحدى قدميه حافيةً، والأخرى لا تزال في جوربٍ أزرقَ باهتِ اللون وخفٍّ مسعور الحمرة. كانت القدمُ الحافية مبلّلة، والقدمُ المكسوّة شديدةَ الجفاف. كان من الصعب أن أشيحَ ببصري عن الأولى، لكنّي أظنّ أنّ تثبيت نظري على شيءٍ ما كان وسيلةً لخداع أذنيَّ، وسيلةً للتظاهر بأنّ ما يهمّ هو قدما فيانا لا ما قاله من أنّه يومًا ما سوف يَقتلُ إينيس. كنت أفضّل أن أفكّر أنّه لم يقل ذلك.

«ما الذي تقوله؟» لم أكن أرغب في متابعة المحادثة، لكنّني قلتُ الكلمات التي أجبرتْه على فعل ذلك بالضبط. «هل أنت مجنون؟»

«مجنون؟ ما سأقوله لك الآن منطقيٌّ كليًّا من وجهة نظري»، أجاب فيانا، وملّس من جديدٍ شعرَه غيرَ الموجود. «لقد عرفتُ إينيس منذ أن كانت طفلةً، منذ أن كانت في السابعة من عمرها. الآن هي في الثالثة والعشرين. إنّها ابنةُ أبوين كانا صديقيْن عظيميْن لي حتى خمس سنوات خلت، لكنّهما لم يعودا كذلك، لأنّهما، بطبيعة الحال، جانقان لذهاب ابنتهما ذاتِ الثمانية عشر ربيعًا للعيش مع صديقهما الذي لطالما أُعجبا به واحترماه، وهما لا يريدان الآن أن تربطَهما أيُّة علاقةٍ بي أو بها أيضًا على الخصوص. كنتُ أتردّد إلى منزلهما كثيرًا، وهناك رأيتُ إينيس وعشقتُها. لقد عشقتني هي أيضًا، لكنْ بطريقة مختلفة بالتأكيد. لم يكن ممكنًا أن تعرف ذلك في حينه، لكنّني عرفته في الحال، وقرّرت أن أجهّز نفسي، وأن أنتظر اثنتيْ عشرة سنةً حتى بلوغها سنَّ الرشد. لم أكن أرغب في التهوّر فأفسدَ كلَّ شيء. وخلال الأشهر القليلة الأخيرة من تلك الفترة اضطررتُ بنفسي إلى كبحها. هذا ما يسمّيه البعض «استحواذًا»، وأسمّيه أنا «عشقًا». ولكن: لم يكن الأمرُ سهلًا؛ فحتى الفتياتُ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة لديهنّ فتيةٌ يطاردونهنّ، فتيةٌ سخفاءُ يريدون التصرّف كالكبار منذ وقتٍ مبكّر، ويفتقرون إلى ضبط النفس، وقد يسبّبون للفتيات أذًى عظيمًا. وحسبتُ أنّها ببلوغها الثامنةَ عشرةَ سأكون في الخمسين تقريبًا، فاعتنيتُ بنفسي جيِّدا، من أجلها. اعتنيتُ بنفسي عنايةً هائلةً، على أنّني لم أستطع فعلَ شيء إزاء وزني -فأيضُ جسدك يتغيّر كلّما تقدّم بك العمرُ- أو إزاء صلعتي، التي ليس لها علاجٌ مقبولٌ حتى الآن، وأنا على يقين من أنّك ستوافقني الرأي أنّ الشعرَ المستعار غيرُ وقورٍ أبدًا، لذا كان عليّ استبعادُه. لكنّني صرفتُ إحدى عشرة سنةً في الذهاب إلى أنديةٍ رياضيّة، وفي تناول طعام صحّيّ، وإجراء فحوصٍ طبيّةٍ كلّ ثلاثة أشهر -فلديّ رعبٌ مطلقٌ من العمليّات الجراحيّة- متجنّبا النساءَ الأخريات، ومتفاديًا الأمراضَ، ومهيِّئًا نفسي عقليًّا بالتأكيد: فأصغي إلى التسجيلات عينها التي تستمع

إليها إينيس، وأتعلم الألعابَ، وأشاهد التلفازَ كثيرًا، وبرامجَ الأطفال، وسنواتٍ من الإعلانات التلفازيّة؛ وأنا أحفظ اليوم كلَّ أناشيد الإعلانات عن ظهر قلب. أمّا بالنسبة إلى القراءة، فحسنًا، يمكنك أن تتخيّل أنّني في البداية قرأتُ الكتبَ المصوّرة، ثم كتب المغامرات، وعددًا من الروايات الرومانسيّة، والأدبَ الإسبانيّ حين كانت تدْرسُه إينيس في المدرسة، وكذلك الأدب الكاتلانيّ، ومانيليك والذئب، وكلّ ذلك. وما زلتُ أقرأ أيَّ شيء تقرأه، وبشكلٍ أساسيّ الكتَّاب الأمريكيين، وهناك المئاتُ منهم. لعبتُ التنس والسكواش كثيرًا، وتزلّجت بعضَ الشيء، وفي عطل نهاية الأسبوع كان عليَّ السفرُ غالبًا إلى مدريد أو سان سيباستيان فقط كي تستطيعَ الذهابَ إلى السباقات، وها قد ذهبنا إلى كلّ المهرجانات في كلّ القرى لنرى الأحصنة وفرسانَها. ولعلّك لاحظتَ أيضًا درّاجتي الناريّة. وتعلّمت أسماءَ جميع لاعبي كرة السلّة وطول قاماتهم عندما كان عليّ أن أفعل ذلك، مع أنّها الآن فقدت الاهتمامَ بهذه اللعبة. ولقد رأيتَ طريقتي في ارتداء الملابس، على مع أنّ كلّ شيء في الصيف مقبولٌ بالتأكيد». وأومأ فيانا بيده اليمنى إيماءةً بليغة. «أتفهم ما أقول؟ طوال هذه السنوات عشتُ حياةً موازيةً لوجودي (بالمناسبة، أنا محامٍ مختصٌّ بأمور الطلاق): أولًا حياةَ طفولة، ثم حياةَ مراهقة -كنت ملكَ ألعاب الفيديو- ولمّا لم يكن بإمكاني مرافقتها إلى السينما، فقد كنت أذهب وحيدًا لأشاهدَ جميعَ أفلام المراهقين عن القتلة والمخلوقات الفضائيّة. لقد عشتُ حياةً موازيةً لحياتي، لكنّها حياةٌ تفتقر إلى الاستمرارية تمامًا، لأنّه يصعبُ على نحوٍ لا يصدّق أن يبقى المرءُ على اطّلاع دائم على المتغيّرات، فصرعاتُ الناشئة تتغيّر طوال الوقت. لا يمكنك تخيُّل ما كان عليه الحال. قلتَ إنّ عمرك قريب من عمر زوجتك، وبالتالي فلا بدّ من أن تكون مراجعُكما واحدةً أو متشابهةً جدًّا. لقد أصغيتما إلى الأغاني نفسها في الوقت نفسه، وشاهدتما الأفلامَ نفسها، وقرأتما الكتبَ نفسها، وتتبّعتما الموضةَ نفسها، واستذكرتما الأحداثَ نفسها واختبرتماها بالقوة نفسها وفي السنوات نفسها. الأمر سهلٌ عليك. فقط تخيّلْ لو لم تكن هذه حالَكما. تخيّلْ فتراتِ الصمت الطويلة التي قد ترين في محادثاتكما. وأسوأُ ما في الأمر هو حين يتوجّب عليك أن تشرح كلَّ شيء، كلَّ مرجع، كلَّ تنويه، كلَّ نكتة، عن ماضيك أو عمرك أو زمنك. من الأفضل حينها أن تستغني عن الأمر برمّته! لقد كان عليَّ الانتظارُ طويلًا، وأكثر من ذلك كان عليَّ أن أنْكرَ ماضيّ وأخترع ماضيًا آخر يتطابق -قدر الإمكان- مع ماضيها، مع ما سيصبح ماضيها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقّف فيانا برهةً، برهةً وجيزةً جدًّا، كأنّ ذبابةً عبرتْ قربه. كان الوقت ليلًا، وكانت عيونُنا قد اعتادت في هذه الأثناء الظلمةَ والضوءَ المنعكسَ من الماء. كنّا على جزيرة. ولم أكن أحمل ساعة. كانت لويزا نائمةً، وإينيس كانت نائمةً أيضًا، كلّ منهما في غرفتها، وعلى سريرها المزدوج. وربّما كانتا مستلقيتيْن بشكل عرضي على السرير، لأنّنا لم نكن، لا أنا ولا فيانا، إلى جانب أيٍّ منهما. ربّما افتقدتانا في نومهما. وربّما لم تفتقدانا، بل ربّما شعرتا بالتخفّف منّا.

«لكنّ كل تلك الجهود انتهت الآن. لم يعد ثمة ما يهمّ. ما يهمّ هو عشقي، عشقي الثابتُ. وهو مماثلٌ جدًّا لما كان عليه منذ ستة عشر عامًا، إلى حدّ أنّني لا أتصور أنه سيتغير في المستقبل القريب. ولو حصل فعلًا فستكون كارثةً. لقد كرُّست نفسي لها منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا. كرُّست نفسي لرعايتها، لتعليمها. لم يكن يمكنني أن أعيشَ على نحوٍ مغاير. لكنّ الأمر بالنسبة إليها مختلف: فلقد حقّقتْ حلمَ طفولتها، هاجسَ طفولتها. منذ خمس سنوات، عندما قدِمتْ للعيش معي، كانت سعيدةً مثلي، لا بل أسعدَ مني، لأنّ منزلي كان كلُّه مصمَّمًا خصّيصا من أجلها، ولم ترِدْ شيئًا إلّا حازتْه. لكنّ شخصيّتها لا تزال تتطوّر. فهي ما تزال تعوّل كثيرًا على الأشياء الجديدة، مشدودةً نحو العالم الخارجيّ، تتلفّت من حولها لتستطلعَ ما لم تره بعد، وماذا ينتظرُها من بعدي. وأظنّ أنها متعَبة قليلًا، لا منّي فقط، بل أيضًا من وضعنا الغريب الشاذّ. هي تفتقد الحياةَ التقليديّة، تفتقد العلاقةَ الحميمة التي كانت تربطُها بوالديها. لا تظنّن أنّني لا أفهم ذلك. بل على العكس، تنبُّأت بأنّ هذا قد يحدث، لكن مجرد فهمي لهذا الأمر لا يساعد مقدار ذرة في حلّها. لكلٍّ منا حياتُه التي يعيشها، ولا نملك سوى حياةٍ واحدة، لا أحد منّا مستعد لأن يحرم نفسه العيش وفقاً لما يهوى، بصرف النظر عن أولئك الذين لا رغبات لديهم، وهم يشكّلون الغالبيَّة في الواقع. في وسع الناس أن يقولوا ما يشاءون، وأن يتحدّثوا عن الإيثار، والتضحية، والكرم، والرضى، والخضوع، لكنّ هذا كلّه زائف. ففي العادة يظنّ الناسُ أنّهم يرغبون في كلّ ما يعترض طريقهم مصادفةً، أيًّا ما يحدث لهم، وأيًّا ما ينجزونه خلال حياتهم أو ما يُمنحونَه، ولا رغبات مبتكرةً لديهم. لكنْ سواءٌ كانت تلك الرغبات متصوَّرة مسبَّقا أو لا، فإنّ كلّ واحدٍ منا يهتمّ بحياته الخاصّة، ولا تهمّ حيواتُ الآخرين إلّا بقدْرِ ما تشتبك وتنفصل عن حياتنا، وبقدر ما يمكن أن يفضي التخلُّص من تلك الحيوات من دون مبالاة أو تردٍّد إلى التأثير في حياتنا؛ فهناك، في النهاية، قوانينُ، وقد تَلْزم عقوباتٌ عنها. عشقي متطرّف -وهذا ما يجعله عشقًا. والوقت الذي كان عليّ أن أنتظرَه كان مفرطًا في طوله أيضًا. والآن ما زلتُ أنتظر، لكنّ طبيعةَ ذلك الانتظار انقلبتْ رأسًا على عقب. ففي السابق كنتُ أنتظر أن أكسبَ شيئًا، أمّا الآن فكلُّ ما في وسعي ترقُّبه هو انتهاءُ هذا كلّه. سابقًا كنتُ أنتظر أن أُمنحَ هديَّة، الآن لا أتوقّع سوى الخسارة. سابقًا كنتُ أنتظر النموّ، الآن أتوقّع التحلّل، ليس تحلّلي وحسب، أتفهمني؟، بل تحلّلها أيضًا، وهذا أمرٌ لست مستعدًّا له. لعلّك تظنّ أنّني أقدّم كثيرًا من الافتراضات، وأنّ شيئًا لا يمكن التنبُّؤ به كليًّا؛ وكما قلتُ سابقًا فإنّ ترتيب ميتاتنا هو الآخر لا يمكن التنبُّؤ به. لعلّك تفكّر في أنّ الحياة لا يمكن التنبؤُ بها أيضًا، وأنّ إينيس قد لا تسأم منّي أو قد لا تهجرني. أنت تفكّر في أنّني قد أكون مخطئًا في خوفي من مرور الزمن، وأنّنا ربما قد نشيخ معًا، على ما ذكرتَ سابقًا، وعلى ما أنت مقتنعٌ بأنّك وزوجتَك سوف تفعلانه، فلقد سمعتُ ما قلتَه، وكلماتُك لم تفتني. لكنْ إذا كان هذا ما سيحدث، إن كنا سنبقى معاً في السنوات القادمة، فإنّ عشقي سيقودني إلى النتيجة نفسها. أمْ تراك تتخيّل أنّني قد أسمح لعشقي بأن يموت؟ هل تظنّ أنّ بإمكاني أن أراقبَها تشيخ وتتدهور من دون أن ألجأ إلى العلاج الوحيد الممكن، وتحديدًا أن تموتَ أولًا؟ هل تتخيّل أنّني، وقد عرفتُها منذ أن كانت في السابعة من عمرها، أتحمّل أن أراها في أربعينيّاتها، ناهيكَ بأن أراها في خمسينيّاتها، دون أي

اثرٍ من طفولتها؟ لا تكن سخيفًا. كأنك تطلبُ من أبٍ طاعنٍ في السنّ أن يحتمل، بل أنْ يحتفي بتحول أطفاله إلى هرمين. الأهل يرفضون رؤيةَ أطفالهم يهْرمون؛ هم يكرهونهم هرمين. ويتجاوزونهم، ويروْن فقط أحفادَهم، إنْ كان لديهم أحفاد. إنّ الزمن يعارِضُ دائمًا ما ابتدَعَه، يعارض الحاضر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دفن فيانا وجهَه في يديْه، كما سبق أن رأيتُه يفعل من شرفتي فوق. في هذه اللحظة رأيتُ أنّ حركته تلك لا تمتّ بصلةٍ إلى الضحكِ المكبوت، بل إلى نوعٍ من الذعر قاصرًا -مع ذلك- عن تكدير سَكينةٍ ما. لربّما كان عليه أن يصطنعَ تلك الحركة من أجل التشبّث بسَكينته. ومن جديد نظرتُ إلى شرفتي وإلى الشرفات الأخرى، لكنّها جميعًا كانت ما تزال ترين في الصمت، فارغةً ومظلمةً، كما لو أنّ أحدًا لم يكن ينام خلفها، وخلف النوافذ والستائر الشبكيّة، وداخل الغرف المتكرّرة المتشابهة، لا لويزا، ولا إينيس، ولا أحد. لكنّني كنتُ أعرف أنّهما كانتا نائمتين، أنّ العالم كان نائمًا، وأنّ عجلتَه الضعيفة توقّفتْ عن الدوران. كنّا، أنا وفيانا، مجرَّد حصيلةٍ لعطالةِ تلك العجلة ما دمنا نتحدّث. وواصل الحديث، ووجهُه ما يزال مغطًّى بيديْه:

«لهذا السبب فإنّ الزمن لا يقدّم حلًّا»، قال. «بدلًا من السماح لعشقي بأن يموت، أفضّل أن أقتلها. أتفهم؟ وبدلًا من السماح لها بأن تهجرني، بدلًا من السماح لعشقي بأن يستمرّ من دون معشوقة، فإنني أيضًا أفضّل أن أقتلها. ذلك من وجهة نظري منطقيٌّ تمامًا. لهذا أعرف ما سيكون عليّ فعلُه ذاتَ يوم، ربّما في المستقبل البعيد. سأؤجّله أبعدَ ما يمكن، غير أنّها مسألةُ وقتٍ فقط. لكنْ، على أي حال، فإنّني أصوّرها بالفيديو كلّ يوم كما ترى».

«ألم تفكّر مرةً في قتل نفسك؟» قلتُ مندفعًا. كنتُ أصغي إليه لا لأنّني راغبٌ في ذلك بل لأنّني كنتُ أشعر أنّه ليس في وسعي فعلُ أيّ شيء آخر، وأنّ الوسيلة الفضلى لعدم المشاركة في المحادثة هو ألّا أقولَ شيئًا، أن أتصرّف كما لو أنّني مستودعُ أسراره فحسب، من دون تقديم أيّة نصيحةٍ أو اعتراض، ومن دون دحضٍ أو موافقةٍ أو تعبيرٍ عن صدمة. لكنْ بدا لي أنّ إنهاء المحادثة يزداد صعوبةً، وأنّ الطريقَ الذي سلكتُه لامتناهٍ. شعرتُ بحكّةٍ في عينيّ. تمنّيت لو تنزلق أغطيةُ لويزا عنها وتوقظُها، فتلحظ غيابي، وتخرج مثلي إلى الشرفة. تمنّيت أن تراني تحت، إلى جوار حوض السباحة، في الوهج الواهن الذي يلقيه القمرُ على الماء، وأن تناديني من الأعلى، وأن تلفظَ اسمي وتنقذني من هذه المحادثة مع فيانا؛ كلّ ما كان عليها فعلُه هو أن تنادي. فخطر ببالي وأنا أصغي إليه أنها لورطة أن يكون عليّ أن أقرأ الصحف من كثب من الآن فصاعداً، كلّما تصدّرها خبرٌ عن امرأةٍ قُتلتْ على يد رجل، فأضطرّ إلى أن أقرأ المقالة بكاملها كي أعثر على اسميْهما. الآن سأخشى دومًا أن تكونَ إينيس هي المتوفّاة، وفيانا هو من قتلها، مع أنّ كل هذه القصة قد تكون محضَ أكاذيب، هنا على هذه الجزيرة، فيما المرأتان نائمتان.

«أقتلُ نفسي؟ لن يكون هذا عملًا صائبًا»، أجاب فيانا، مبعدًا يديه عن وجهه. نظر إليَّ بتعبيرٍ أقربَ إلى التفكّه من المفاجأة، وارتفعتْ زاويتا فمه بابتسامةٍ تقريبًا، أو

هذا ما بدا لي في الظلمة.

«سيكون أقلَّ صوابًا بكثير -إذا فهمتُكَ على وجهٍ صحيح- أن تقتلَها فقط لكي تستطيعَ الاستمرارَ في عشقكَ لها على شريطٍ مسجَّل حين تموت».

«لا، لم تفهمْ: سيكون صائبًا أن أقتلها للأسباب التي شرحتُها. ما من أحدٍ يتخلّى طوعًا عن طريقة عيشه لو كان يملك فكرةً جيِّدة إلى حدٍّ ما عن كيفيّة رغبته في عيشها. وأنا أملك ذلك، وهذا ليس أمرًا عاديًّا. ثمّ إنّ القتل -كيف أصفُه؟- ممارسةٌ ذَكَريٌّة جدًّا، تمامًا كالإعدام، لكنّ هذا لا ينطبق على الانتحار، الذي هو أمرٌ شائعٌ بين النساء والرجال على حدّ سواء. لقد ذكرتُ سابقًا أنّ لدى إينيس فكرةً غامضةً عمّا ينتظرُها من بعدي، لكن الحقيقة هي أنْ لا شيءَ بعدي. فيما يخصّها على الأقل، لا شيء؛ قد لا تدرك إينيس ذلك، لكن عليها أن تفعل. وإذا قتلتُ نفسي، فلن يكون ذلك هو الوضع، وحقيقة الأمر أنّه لا بدّ من أن لا يكون ثمة شيءٌ من بعدي. ألا توافقني؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدت قدمُ فيانا وقد جفّت، لكنّ الجورب المعلّق على ظهر الكرسيّ الطويل كان ما يزال يقطر بسرعةٍ على العشب. شعرتُ بأنّني أكاد أحسّ برطوبته على قدميّ داخل حذائي. تخيُّلت ما قد يكون عليه الإحساسُ عند ارتداء ذلك الجورب الرطب. خلعتُ فردةَ حذائي اليسرى لأحكّ كعب تلك القدم بالخفّ الأسود في قدمي اليمنى.

«لمَ تخْبرني بكلّ هذا؟ ألا تخشى أن أبْلغ عنكَ الشرطة؟ أو أن أتحدّث إلى إينيس في الصباح؟»

شبك فيانا أصابعَه خلف عنقه، وتراجع في كرسيّه الطويل، فلمس رأسُه الأصلعُ الجوربَ المبلَّل. انتفض في الحال واعتدل في جلسته، كما ينتفض المرءُ عندما تمسّ ذبابةٌ جلده. انتعل الخفَّ الأحمرَ الذي خلعه منذ بعض الوقت، عندما كنت ما أزال واقفًا على شرفتنا، وهذا بدّد بطريقةٍ ما أيَّ شعورٍ بالعجز قد يكون خالجه. وخطر لي فجأةً أنّ المحادثة ستنتهي.

«لا يمكنك أن تبلغ الشرطة على أساس النوايا»، قال. «سنغادرُ إلى برشلونة غدًا. لن نرى بعضنا بعضًا، أنت وأنا، مجدَّدا أبدًا. سنغادر باكرًا، ولن يكون هناك متسعٌ من الوقت للذهاب إلى الشاطئ. ستنسى غدًا الأمرَ برمّته. ولن ترغب في التذكّر، ولن تأخذ الأمرَ على محمل الجِدّ، أو تتذكّرني أو تتذكّر هذه اللحظة، ولن تحاول أن تكتشف أيّ شيء. لن تسأل عنّا في الفندق، لتتأكّد من أنّني وإينيس غادرنا معًا، ومن أنّنا دفعنا الفاتورة، ومن أنّ شيئًا لم يحدث أثناء الليل، حين كنتَ الشخصَ الوحيدَ اليقظَ الذي تحدّث إليّ. بل أنت لن تخبر زوجتَكَ بما دار بيننا من حديث -ولمَ تقلقها؟- لأنّك في أعماقك لست راغبًا في تصديقي. ستتدبّر الأمر، لا تقلق».

تردّد فيانا لحظةً ثم تابع: «قد لا تفكّر كذلك، لكنْ إذا كنت تنوي تحذيرَ إينيس فسوف تسرّع العمليَّة، هكذا وبصراحة، وسيكون عليَّ قتلُها غدًا. هل تفهم؟»

تردّد ثانية. توقف ونظر عاليًا إلى السماء، إلى القمر، ثمّ نزل بنظره إلى الماء، وكرّر وضعيَّة الرعب تلك، فغطّى وجهه، وواصل الكلام:

«ومن قال إنّك قد تتمكن من التحدّث إليها غدًا؟ مَن قال إنّني لم أقتلها أصلًا الليلة، قبل قليل، قبل أن أنزل إلى هنا؟ من قال إنّها ليست ميتةً الآن، وإنّني لهذا السبب أتحدّث إليك الآن؟ أيّ شخص يمكن أن يموت في أيّة لحظة. لقد علّمونا هذا في المدرسة، لقد عرفنا هذا مذ كنّا أطفالًا. لجميعنا مكانُه في ترتيب الموت. أنت نفسُك تركتَ زوجتكَ نائمةً، لكنْ أنّى لك أن تعْلم أنّها لم تمت وأنت تتحدّث معي؟ ربما هي تحتضر الآن. لن يكون لديك الوقتُ للوصول إليها، ولو ركضتَ. كيف تعرف أنّ إينيس لم تُقتل على يدي -وأنّ هذا هو ما دعاني إلى حلق شاربي- قبل فترة، قبل أن تنزل، وقبل أن أنزل؟ أو إينيس وزوجتك أيضًا؟ كيف تعرف أنّ إينيس وزوجتك لم تموتا بينما هما نائمتان؟»

لم أصدّقْه. سيكون جمالُ إينيس المثاليّ هاجعًا، خواتمُها الثمانية على الطاولة الجانبيّة، نهداها الضخمان في سلامٍ تحت الملاءات، وسيكون تنفُّسها منتظمًا، وشفتاها المتطابقتان نصفَ فاغرتيْن مثلَ شفتيْ طفل، عظمُ عانتها الأمرد يخلّف بقعةً واهيةً، ذلك الإفرازَ الليليَّ الغريبَ الذي تفرزه النساءُ. وستكون لويزا نائمة، وكنتُ قد رأيتُها، ورأيتُ وجهَها السمح، الفتيّ، بملامحه الحسنة، تتحرّك عيناها المضطربتان تحت جفنيها، كأنهما لم تعتادا أن تكفّا ليلًا عمّا فعلتاه آناء النهار، بخلافِ عينيْ إينيس، اللتين ربما كانتا هادئتيْن تمامًا الآن على الأرجح، أثناء النوم الذي تحتاجه للمحافظة على جمالها الثابت.

كانتا كلتاهما نائمتيْن، ولهذا لم تستيقظا وتخرجا إلى الشرفة. لم تمت لويزا في غيابي، مهما طال زمنُه -وكنتُ قد نسيتُ ساعتي. وعلى نحوٍ غريزيّ، رفعتُ بصري عاليًا نحو الغرف، نحو شرفتي، ونحو باقي الشرفات، ورأيتُ على إحداها هيئةً ملتحفةً بملاءةٍ وسمعتُها تناديني مرتين، باسمي، مثلما تنادي الأمُّهات أطفالهنّ بأسمائهم. وقفتُ. لكنْ، على شرفة إينيس، أيًّا كانت تلك الشرفة، لم يكن ثمّة أحدٌ على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة إسحق

خابيير مارياس

عكفَ طوال أيام حياته على حلّ أحجية.

عندما كان والد صديقه الحميم، ويدعى إسحق كوستاردوي، في مقتبل العمر، حلَّت عليه لعنة، وعيدٌ، أو دعاء. كان صاحب أملاك وجندي يعيش في هافانا، فخوراً بعمله وسمعته كزير نساء ولم يكن يخطط للزواج، على الأقل ليس قبل أن يبلغ الخمسين من العمر. ذات صباح عندما كان ذاهباً في جولة على حصانه، مرَّ بشحَّاذ خلاسي، ورفض التصَّدق عليه. وعندما كان يهمُّ بمتابعة سيره ممسكاً بمهمازيه، اختطف الشَّحاذ لجام الحصان وقال: «ستموت أنت وابنك الأكبر والابن الأكبر لابنك الأكبر جميعاً بعيداً عن بلدكم، لن تبلغوا سن الخمسين أبداً ولن يكون لكم قبر».

لم يبالِ والد صديقه كثيراً، عندما عاد إلى البيت من جولته، روى القصَّة أثناء تناول وجبة الغداء ونسي أمرها في الحال. حدث هذا عام 1873، عندما لم يكن والد صديقه يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

في عام 1898، عندما كان والد صديقه المفضَّل برتبة مقدَّم متزوجاً وله سبعة أطفال، كان واضحاً أن العميد البحري شيلي على ثقة بالفوز، وأن كوبا على وشك السُّقوط بيد سلطة أجنبية. لم يحتمل والد الصديق فكرة رؤية علم آخر يرفرف على مرفأ هافانا سوى العلم الإسباني. لذا سارع إلى بيع جميع أملاكه، عازماً على فكرة مغادرة موطنه إلى الأبد، مع أنه لم يغادر الجزيرة من قبل قط وعلى إصابته بالدُّوار الدهليزي، توجَّه إلى إسبانيا بصحبة جميع أفراد عائلته. مات بعد أسبوع واحد على ظهر السَّفينة، إثر نوبة شديدة فتاكة من المرض المذكور: كان على السَّطح منحنياً على الدرابزين، يفكر ويتساءل (مستسلماً لرعشة من الإثارة): كيف سيكون ذلك البلد الذي يعرف اسمه تمام المعرفة؟ فجأة، بلا شك بعد أن أغارت عليه ضوضاء مريعة ثم صمت -ليموت بلفتاته الوجيزة المحمومة، متألماً أولاً، ثم غائباً عن الوعي- وسقط صريعاً. رُبطت كِلَّة إلى جسده ورُمي من على المركب. كان على وشك أن يبلغ الخمسين.

في إسبانيا، استمرَّ ابنه الأكبر، المدعو اسحق كوستاردوي أيضاً، في السِّلك العسكري الذي بدأه في كوبا تحت رعاية والده. بما لديه من كفاءة أصيلة وعزيمة عظيمة، رُقي بسرعة كبيرة إلى رتبة عقيد وأصبح ضابطاً مرافقاً للجنرال فرناندیز سيلفستر. عاش في مدريد، ولطالما شعر بالمسؤولية عن إخوته الأصغر سناً، اعتنى بهم ونادراً ما كان يغادر المدينة. مع ذلك في العام 1921، اضطر لمرافقة صديقه والضابط الآمر إلى المغرب. في خضم معركة أنوال المشؤومة، عندما تفرَّق شمل القوات الإسبانية وهزمها برابرة عبد الكريم، وَجِد كل من الجنرال، كوستاردوي، وابنه -ضحايا الفوضى السَّائدة، وحالة الذُّعر الشَّاملة والارتباك- نفسيهما بلا حول ولا قوة بمعزل عن باقي الفريق الأساسي، ولكن، كان هناك شاحنة تحت تصرفهما.

رفض سيلفستر مغادرة الجبهة ورفض كوستاردوي ترك الضّابط الآمر، تمكنا مع ذلك من إقناع ابن الجنرال الذهاب بالشاحنة إلى مكان آمن. كان الجنديان متروكين لمواجهة الهزيمة وحيدين ولم يتم العثور على جثتيهما أبداً. كل ما عثر عليه من متاع كوستاردوي كان منظاره وحزامه الجلدي فقط. على ما يبدو أن الرجلين قُتلا على الخازوق. كان اسحق كوستاردوي في عمر الخامسة والأربعين. مخلفاً وراءه زوجة فقط.

أمضى صديق اسحق كوستاردوي الحميم حياته في محاولة تفسير تلك الأحجية: لماذا صحَّت نبوءة ذلك الشَّحاذ الخلاسي تماماً على اثنين، لكن ليس على الثالث؟ لم يكن للابن الأكبر ابنٌ أكبر. كان بيِّناً أن فكرة الابن غير الشرعي شديدة الابتذال. لو لم تتحقق أية واحدة من اللعنات، أو لو أن جميعها تحققت، لكان خلد إلى الراحة. ولكنه أبى إلا أن يكرس طوال أيام حياته لتفسير الأحجية.

عندما كان طاعناً في السن ضجراً من البطالة، كان يستمتع بقراءة الإنجيل. وذات يوم، وهو يعيد قراءته مرة أخرى، استوقفته كلمات: وكان إبراهيم في السَّادسة والثمانين من عمره عندما ولدت هاجر لإبراهيم ابنه إسماعيل. ثم توقَّف ثانية: وكان إبراهيم في المائة من العمر عندما رزق بابنه اسحق. أعلن يهوه عن مولد اسحق قبل إسماعيل ابن هاجر -والذي كان قد ولد بالفعل- بكثير، كان في الثالث عشرة من عمره عندما ولدت سارة. هذا قاده للتأمل: «أين كان اسحق طوال ذلك الوقت، من لحظة التنبؤ بولادته إلى لحظة ولادته، من اللحظة عندما كان وجوده متنبأ به إلى لحظة ولادته بالفعل؟» حسناً، لا بد من أنه كان في مكان ما، لأن يهوه عرف بأمره، كما عرف إبراهيم وسارة. هذا أدى به أن يمضي قدماً حتى الوصول إلى مشكلته، أدى به للتفكير: «مولد حفيد اسحق كوستاردوي متنبأ به أيضاً، لكنه لم يولد قط، لم يولد ولم تحبل به امرأة. لكن عرف الشَّحاذ الخلاسي وكوستاردوي بأمره منذ عام 1873. أين يكون منذ ذلك الحين؟ لا بد من أنه في مكان ما».

استمر في هذا التفكُّر وعكف ما بقي من أيام حياته على حلِّ هذه الأحجية. وعندما شارف على الموت، دوَّن أفكاره على قصاصة ورقية: «أحس بأني مشرف على الموت، لأبدأ رحلتي الأخيرة. ما الذي سيحل بي؟ أين سأذهب؟ هل سأذهب إلى أي مكان؟ يمكنني أن أحس باقتراب الموت لأني عشت وكنت مولوداً، لأني لا أزال حياً، إذن ليس الموت بكافٍ أو شامل لكل شيء، لا يمكنه أن يمنع ما عداه عن الوجود، وعليه أن يتكيف مع حقيقة أن شيئاً ينتظره ويفكر فيه. إن الشَّخص الذي لم يولد، أو بل أكثر من ذلك، الشَّخص الذي لم يتم توليده أو لم تحبل به امرأة هو الشيء الوحيد الذي يخص الموت بالكامل. الشخص الذي لم تحمل به امرأة يموت كلياً. سافر هو / هي دون انقطاع على طول تلك المتاهة ذات الدروب الشديدة التعرج: درب المصادفة. هو / هي الشَّخص الوحيد الذي سيكون بلا وطن أو قبر. ذلك الشخص هو اسحق كوستاردوي. أنا، من ناحية أخرى، لست هو».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حياة وموت مارسيلينو ايتورياجا

خابيير مارياس

كان يوم الثَّاني والعشرين من شهر تشرين الثَّاني عام 1957 يوماً ملبداً بالغيوم وقد غطت الأفق كتلة كثيفة، خاملة، ومنيعة من السُّحب. كانت عاصفة تتوعد بالهبوب.

كان ذلك اليوم على قدر من الأهمية بالنسبة إلي، رحلت فيه عن أحبَّتي إلى غير رجعة، منذ سنة بالتمام. إنها الذكرى السَّنوية الأولى لوفاتي. جاءت زوجتي اسبرانسيتا صباحاً بباقة زهور ووضعتها فوقي بعناية شديدة. كنت أفضِّل لو أنها لم تفعل، لأن الزهور حجبت عني الرؤية، لكنها اعتادت أن تأتي لي في الثاني والعشرين من كل شهر بزهور يانعة، وكانت تصحب الولدين معها أيضاً مرةً كل شهرين.

كان من المفترض أن تصحبهما معها هذا الشَّهر، لكن يخيَّل لي أن اسبرانسيتا فضَّلت المجيء بمفردها كونها الذكرى السَّنوية الأولى. للسبب نفسه كانت باقة القرنفل أكبر من المعتاد، وحجبت عني الرؤية بشكل أكبر كذلك. ومع ذلك تمكَّنت من رؤية اسبرانسيتا بوضوح. كانت أكثر امتلاءً بقليل عما كانت عليه في زيارتها الأخيرة، الشَّهر الفائت، ومن الواضح أنها لم تعد تلك الفتاة الخفيفة، الرشيقة، النَّحيلة التي شعرت نحوها يوماً بالانجذاب. بل على العكس من ذلك، كانت تمشي على نحو أخرق، تفتقر مشيتها إلى الرشاقة، ولم تكن ثياب الحداد السَّوداء التي ترتديها آنئذٍ تناسبها إطلاقاً، ذكَّرتني هيئتها تلك بحماتي لأن شعر اسبرانسيتا لم يعد أسود فاحماً، بل كان آخذاً بالمشيب حول جبهتها وصدغيها. أتذكَّر هيئتها آخر مرة رأيتها بعيون مفتوحة، ومع ذلك المشهد الذي مرَّ عليه سنة، في شقتي في شارع «باركييو» انبثقت حياتي بأكملها أمام ناظري أيضاً.

2

ولدت في مدريد عام 1921، في شقَّة صغيرة في شارع «دي نارفايس». كان أبي يملك صيدلية في الطابق السُّفلي، معلق أعلاها لافتة كتب عليها: ايتورياجا، صيدلي، وكتب تحتها تماماً بأحرف صغيرة: «نبيع الحلويات أيضاً»، وهذا ما دعاني وأخي أن نمضي شوطاً طويلاً من النَّهار في المتجر. كنا فيما بقي من الوقت مقحَمين في قاعة دراسية قديمة وقذرة في مدرسة الحي، حيث يتولى أستاذ تدريس جميع المواد المدرجة في المنهاج، لأربعة عشر طالباً. كانت الصُّفوف رتيبة للغاية، فلم يكن منَّا إلا أن نغفو أو نتبادل نقف كرات ورقية صغيرة.

كانت أمي امرأة وديعة ممتلئة الجسم، لم تتوانَ يوماً عن تقديم المساعدة لي ولأخي كلما وقعنا في مأزق أو عندما كان أبي يفرغ خيبته علينا بعد يوم شحيح المردود.

أمَّا أبي فقد كان رجلاً حادَّ الطباع، لاسيَّما عندما يكون سيئ المزاج. لطالما ظننت بأنَّ العمل في الجزارة ربما يليق به أكثر بكثير من عمله كصيدلي.

بقيت في مدرسة شارع دي نارفايس تلك حتى بلغت عامي الخامس عشر، ومن بعدها اندلعت الحرب الأهلية، لكنها مرت بي مثل أي حدث آخر من حوادث الحياة وحسب. وخرجنا منها أنا وعائلتي دون أن نتكبَّد خسائر كبيرة. قاتل أخي على الجبهة لكنه نجا وعاد سالماً مفعماً بالمشاعر الوطنية والفخر بالنصر القومي اليميني، وهذا ما لم أتشاركه معه أبداً. ثم التحقت بكلية للحصول على إجازة في الاقتصاد، واستغرقت ثمان سنوات لإنهائها، ما أثار سخط والدي الذي استهجن كل تلك الفصول الدراسية المرجأة والمعادة. وعلى كل شيء، أظن أن عهدي كطالب كان أسعد أيام حياتي القصيرة وأكثرها حيوية. تسليت ودرست قليلاً جداً، والتقيت باسبرانسيتا، كانت خجولة في تعاملها مع الفتيان لكنها مع ذلك كانت حنونة وكريمة، كنا نذهب إلى السينما أو إلى السِّيرك أو للتنزه، وفي آخر الأمر بتنا نمضي معاً كل أصيل أو مساء. بعد أن أنهيت دراستي الجامعية بسنتين طلبت من اسبرانسيتا الزواج فوافقت، وبعد سنتين ولد ابني الأول «ميجيل»، وبعد سنتين ولد «جريجوريتو»، الاسم الذي لم أحبه يوماً، لكني وافقت عليه بإصرار من حماتي التي تدعى جريجوريا، بالإضافة إلى أني فكرت دوماً في أن اسم «جريجوريتو ايتورياجا آجيرري» طويل جداً ويتكرر حرف الراء فيه كثيراً.

عندما أفكِّر في الأمر الآن لا أصدق أني تزوجت اسبرانسيتا حباً بها، بل لأني ظننت أنها ستكون عوناً حقيقياً لي في عملي المصرفي. ولكن اتضح لي فيما بعد أنها لم تكن كذلك على الاطلاق، لأنها أخذت على عاتقها تنشئة الأطفال بجدية كبيرة، وأمضت اليوم بطوله بصحبتهما. لم أكن سعيداً معها على وجه الخصوص، لكن لن أقول بأني كنت تعيساً أيضاً.

كانت حماتي تقيم معنا، ووالدي أيضاً، ولم يكونا يطيقان رؤية بعضهما البعض، لكن لما كان الأمر خارجاً عن إرادتهما، وبالنظر إلى صغر مساحة الشَّقة إلى حد ما، كانا يتشاجران ويتجادلان يومياً على أمور تافهة لا يمكن الجدال حولها، أو لا يتوجَّب عليهما ذلك، لأنهما لا يكادان يعرفان عنها شيئاً. هذا بالإضافة إلى صراخ اسبرانسيتا على الخادمة مانويلا وبكاء الأطفال، ما جعل المنزل لا يطاق وبدا لي المصرف جنةً. ولأنني مسؤول عن إطعام سبعة أفواه، سرني العمل ساعات إضافية، لكن دافعي لهذا كان غالباً لأنه يمنحني فرصة لقضاء وقت هادئ بمفردي.

توفيت أمي بعد انقضاء أربع سنوات على نهاية الحرب، وفي ظني أنها الشَّخص الوحيد الذي تعلَّقت به فعلياً. كان حزني على رحيلها أكبر من حزني على وفاة أبي، فلم أكن أحس تجاهه بأي مشاعر بَنوية حقيقية.

شكل موتي صدمة كبيرة للجميع إلى حدٍّ ما. شعرت في شهر آب من عام 1956 بآلام شديدة حادة في صدري. دفعني الذُّعر لاستشارة أخي الطبيب، فطمأنني مرجِّحاً أن يكون الألم أثراً لنزلة برد شديدة أو التهاب في الحلق فحسب.

وصف لي عقاراً طبياً وغاب الألم حتى السَّادس عشر من شهر تشرين الثاني، إذ عاد في هجمة أشد ضراوة مما كان عليه في شهر آب. تناولت الدواء مجدداً لكنه لم يفدني هذه المرة بشيء من التحسن، وفي الواحد والعشرين منه كنت ممدداً على السرير محموماً مصاباً بسرطان الرئة ولا أمل لي بالشفاء.

كان ذلك اليوم أشد ما يكون إيلاماً. كان الألم مريعاً ولم يكن في وسع أحد أن يفعل شيئاً لتخفيفه. ميزت اسبرانسيتا على نحو مبهم تنحني على سريري باكية، وكانت حماتي السيدة جريجوريا تربِّت على ظهرها بحنان مواسية لها. لم يتأثر الطفلان إلا لماماً، فلم يكن في وسعهما فهم ما يجري من حولهما. كان أخي وزوجته جالسين كما لو بانتظار موتي ليستطيعا الخروج من ذلك المشهد الميلودرامي الممل. وقف رئيسي في العمل وبعض زملائي في العتبة ينظرون إليَّ بإشفاق، وكانوا كلما رأوا أني أنظِر إليهم ابتسموا بودٍّ مذعنين. اشتدت الحرارة في السَّاعة السَّادسة من مساء يوم الثَّاني والعشرين، حاولت النهوض من السَّرير لكني وقعت على المخدة صريعاً. أحسست لحظة الوفاة بتلاشي كل ما شعرت به من ألم ومعاناة، وأردت أن أخبر عائلتي وأصدقائي بأني ما عدت أتألم وأني حي أيضاً لكني لم أستطع. لم أستطع أن أتكلم أو أتحرك أو أفتح عيني، ومع ذلك رأيت وسمعت كل ما يجري من حولي. قالت حماتي:

«لقد فارق الحياة».

ردد الآخرون في آن: «ليرقد بسلام».

رأيت كيف انسحب أخي وزوجته من فورهما، حالما أبلغا اسبرانسيتا بأنهما سيهتمان بالمأتم المقرر عقده في اليوم التالي. غادر الجميع تدريجاً أيضاً وتركت وحيداً. لم أدرِ ماذا أفعل. بوسعي أن أفكر، أرى وأسمع، إذن أنا موجود وحي، وكانوا على وَشك أن يدفنوني في اليوم التالي. حاولت أن أتحرك بإلحاح لكني لم أستطع. ثم أدركت أنني ميت، وأن بعد الموت لا يوجد شيء، وكل ما بقي لي كان أن أتمدد في قبري إلى الأبد، دون أن أتنفس ولكنني حي، بلا عينين لكن قادر على الرؤية، دون أذنين لكن قادر على السَّمع.

في اليوم التالي وضعت في نعش أسود ثم حملتني عربة نقل الموتى إلى المقبرة. لم يحضر عدد كبير من الناس. غادر الجميع بعد المراسم المقتضبة وألفيت وحيداً. بداية لم تعجبني على الإطلاق لكني الآن اعتدت عليها وأستمتع بالصمت. أرى اسبرانسيتا مرة كل شهر، والأولاد مرة كل شهرين، وهذا كل شيء، هذه حياتي وموتي حيث لا يوجد شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس القصص القصيرة..

عن الكتاب..

الغاوتشو () الذي لا يطاق

جِم (JIM)

بيناهنَّ نائمات

رحلة إسحق

Notes

[←1]

(1) وهم رعاة البقر في سهول في أميركا اللاتينية.

[←2]

(2) روبرتو بولانيو أفالوس هو كاتب وشاعر تشيلي ولد بمدينة سانتياغو عاصمة تشيلي في 28 أبريل عام 1953 وتوفي في مدينة برشلونة الإسبانية في 15 يوليو عام 2003. حصلت روايته المخبرون المتوحشون على جائزتي هيرالدي عام 1998 وروملو جايجوس عام 1999 تحول بولانيو بعد وفاته إلى أحد أكثر الكتاب المؤثرين في الأدب الإسباني.

[←3]

(3) أوبرا لفاغنر.

[←4]

(4) روائي وقاص وكاتب تراجم ومترجم إسباني، وُلد في مدريد عام 1951، وعمل أستاذًا في جامعة أوكسفورد، وجامعات الولايات المتحدة الأمريكية، وجامعات مدريد.